الليلة التي لن
تشرق فيها الشمس

“الى الذين يهربون من الموت فتخنقهم الحياة”

" كل اللذين ماتوا نجوا من الحياة بأعجوبة "

محمود درويش

رقصة الشيطان الأولى

ان الظلام هو انعكاسنا، هو كل ما نخبئه تحت الجلد، كل ما نخشى أن يخرج للعلن. انه العدو الذي لا يموت، و لا يُهزم، ينتظرك خلف كل غفوة، خلف كل رمشة عين... لأنه يعرف أنك ستعود إليه، لأنه يعرف أنك... منه. هناك كل شيء ممكن. الجدران تتحول إلى أبواب نحو العدم، والهواء يصبح ثقيلًا كأنه يمتص أنفاسك، فيبدأ الشعور بالاختناق وأنت تدرك أن الظلام لا ينتهي... بل يتكرر، يتكرر في داخلك، في كل مرة تغلق فيها عينيك و تعتاد على الظلمة يبتسم الظلام بخبث. هو لا يريدك أن ترى، بل أن تشعر بما لا يُرى تلك اليد التي تمتد من وراء الستائر، ذلك النفس الثقيل خلف رقبتك، ذلك الصوت الخافت الذي يناديك باسمك من بعيد، لكنه ليس بصوت تعرفه و حين يسقط القمر ميتاً بين الغيوم، يُفتح باب العدم و يمتد سواد لا بداية له ولا نهاية، بحر من الفراغ يغرق فيه كل شيء: أصواتنا، أحلامنا، وحتى مخاوفنا. كل ما نخافه يعيش في الظلام، يتنفس من صمتنا، ويتغذى على ارتجافنا. ما يجعله ليس مجرد غياب للنور، بل هو حضور كثيف لشيء لا اسم له، شيء نعرفه فقط من خلال الرجفة التي تعتري أرواحنا شئء يشبه الشيطان ,

يتعالى صوت المطر مثل سنفونيية الموت الأخيرة , تضرب قطراته تربة الأرض العارية مخلفة صوت قرقعة خفيفة مثل نقر متتال على الخشب الجاف فتصدر صوتا مزعجا يقتل سكون الليل و يهيج أموات القبور .انه يتساقط بلا هوادة، كأنه الشهب المحترقة تتلألأ قطراته بألوان الصدأ تحت أنوار الزريبة الضبابية. الرياح تعصف بقوة، تجعل كل قطرة مطر تبدو وكأنها نقطة من العتمة تتجه نحو الأرض بسرعة مخيفة. يتلاءم صوت المطر القوي مع الرعود التي تدوي بشدة في الأفق، كأنها نبأ مرعب ينذر بقدوم عواصف أخرى.

المشهد يظلم وينير بين اللحظة والأخرى، كلما ضربت البروق، تبدو الأشجار كظلال ضخمة تتربع في الظلام. تندلع أصوات الرعد كالأصوات المتفجرة، تهز آثار الكوخ المهترئ وتضيف صدى لكل صوت مرعب في السماء.

بينما ترقص قطرات المطر على النوافذ المهشمة بشكل مرعب، كأنها مجموعة من الأرواح الغاضبة تطلب الدخول مختلطا بصوت ضربات المعول و هي تدق قلب الأرض و تنبش مثل العث الجائع تحت أيد مرتعشة

شاحبة لرجل يرتدي معطفا أسود واق للمطر و قبعة تخفي ندوب وجهه البشعة و خلفه يقف رجل يرتدي لباس كاهن أسود مثل رماد الجثث المتعفنة يمسك مصباحا غازييا يوجهه للحفرة الفارغة و يتلوا كلمات سريعة مبهمة في نسق متتال عندما ينتهي من الحفر يتوقف الكاهن عن التلاوة فيرمي الحفار المعول و يتجه نحو الزريبة تباعا خلف الكاهن ,

عندما تفتح أبواب الزريبة و يدخل الرجلان تغلق الأبواب خلفهم , في الداخل لا يردع الظلام سوى لهب الشموع الباهتة المنتشرة على الأرفف الخشبية المتهالكة , و بين أركان العتمة الباهتة تتحرك خيالات البشر مكتسحين بالسواد في عبايات طويلة تغطي أجسادهم مرتدين أقنعة بيضاء مصطفين في خطوط طويلة دائرية و على أرض ذالك المكان المدنس يوجد دائرة مرسومة يحيط بها من الأربعة أركان أربعة دوائر، مرسوم داخل كل دائرة نجمة خماسية وكل دائرة من الأربعة يقف فيها ثلاث أشخاص ملتفين. يتقدم أحد الحاضرين و يشعل عدد من الشموع يمثل مضاعفات الرقم " 6" ثم يبدأ الواقفين شبابا وشابات بخلع الجزء الأعلى من ثيابهم في حين يرتل الكاهن جزء من ترتيلة "المفاتيح السبعة" حيث يستحضر روح السيد أو روح أحد معاونيه و في الأثناء يبدأ الحاضرون بالتشابك في محاولة لأداء الرقصة الحمراء. و حين ينتهي الكاهن من تراتيله يتوقف الحشد عن الرقص و تفتح البوابات ثانية و يطل منها جسد فتاة في الخامسة عشرة عارية لا يسترها شيئ بينما تنسدل خصلات شعرها الأسود الطويل حول كتفيها وصولا لخصرها و أسفله تتقدم من الجمع بخطى واثقة,خفيفة، تشبه همسات الرياح في الزمان، تتلاشى بين الحواف، تختبئ في الزوايا، حيث لا يدركها إلا القليل. مشيتها ليست مشية حية بل مشية غريبة، كأنها لا تنتمي لهذه الأرض، كأنها مجرد فكرة تاهت بين عالمين.

وحين تمشي، يبدو وكأنها تمزج بين الضوء والظل فتذوب في المسافات، تترك وراءها شيئاً غير ملموس، يتسلل إلى الأرواح دون أن يدركه العقل. مستغرقة في أفكارٍ بعيدة، كأنها تبحث عن شيءٍ لم تجده بعد.وجهاً بلا تعبير واضح، لكن في عيونها شيءٌ من الحزن المستتر فبدت بذالك مثل ضل شفاف يستقي وجوده من الظلام ,
و عندما وصلت الي منتصف الدائرة ركع جميع الحاضرين في هيبة و اقترب منها الكاهن في خشوع ثم وضع يده على رأسها بينما أمسك الخنجر بالأخرى ثم نادى بصوت عال : " أبها السيد أنقذنا بملكوتك نبجلك و نعبدك أرسل بركاتك لهذا الجسد الأعذر " ثم قام بشق جلد معصمها و ابتعد خطوتين للوراء عنها مادا يده لأحد الحضور الذي بدوره قدم له كأسا ذهبيية مزينة بالكرستال الاحمر الذي يلمع تحت لهب الشموع مثل حجر جهنم و قام بعدها بتقطير دمائها فيه ووزعه بالتتالي على الحاضرين يشربونه بلهفة كأنه مباركة النعيم و عندما عاد الكأس للكاهن نقع فيه أصابعه و رسم على جسدها العاري رسوما و عبارات فاحشة ملعونة ثم جعلها تركع رافعة رأسها ناظرة بعينيها لسقف حيث تقابلها النجمة الخماسيية الا أن الفتاة لم تكن تنظر حيث أرادوها ان تنظر بل كانت تتأمل شبح فتاة يشبهها تنظر اليها من شقوق السقف و لأول مرة ابتسمت لكن الخنجر كان قد نحر عنقها فكانت ابتسامة عرجاء مشوهة مثل هذا المكان العفن.

عندما يهمس الظل لا تستمع

مدينة "الظليل" بلدة نائية تنام تحت عباءة من الكآبة، حيث الجبال الثلاثة المحيطة بها تقف كحراس صامتين، يملؤون الأفق بشموخهم المهيب وكأنهم يتآمرون مع الظلال التي تُلقيها الشمس الغاربة. هذه الجبال ليست مجرد حجارة صماء، بل تبدو وكأنها تُراقب كل خطوة و تقبض بأكف من حديد على أنفاس المارة .
يشقها على الضفة الأخرى نهر جاف يسمى نهر "رم" الذي كان يوماً ما شريان الحياة، أصبح الآن كجرح مفتوح يعبر البلدة , الصخور الحادة تبرز من مجراه كعظام مكسورة وتنتشر في المكان أصوات الرياح التي تمر عبره، كأنها أنفاس الأرواح التي تركت الأرض منذ زمن بعيد. عند الغسق، يتصاعد من مجراه ضباب خفيف، يُخيّل للناظر أنه أنفاس النهر الأخيرة. تحيط بها غابات اقرب منها الى متاهات من الأشجار الشاهقة ذات الجذوع الملتوية،كأذرع تحاول الإمساك بمن يعبر بينها. الأصوات فيها ليست مجرد همسات الريح، بل أصداء خطوات مجهولة، وأحياناً تسمع فيها صدى ضحكات بعيدة، ضحكات تخرج من مكان لا ينبغي أن يكون فيه أحد.
البيوت في هذه القرية تشبه القبور الفارغة المخبأة بين تلال نائية،

متراصة في صمت، أسطحها المنحدرة مغطاة بألواح خشبية قديمة، وألوانها الباهتة تتراوح بين الرمادي الباهت والأخضر المائل إلى البني، وكأنها مهجورة منذ زمن طويل، أو أنها تخفي شيئًا خلف تلك الجدران المتشققة. نوافذها ضيقة، زجاجها معتم، بعضها مغطى بستائر سميكة، لا يكاد يخترقها الضوء، مما يجعلها تشبه أعينًا مغلقة، حريصة على عدم إظهار أسرارها. أمام كل منزل، باب ثقيل، خشبي وصدئ، متقادم لدرجة أن أي محاولة لفتحه قد تكون مصحوبة بصوت صرير خفيف، كما لو أن البيت يرفض السماح لأي شخص بالدخول. المفصلات تتأرجح بصعوبة، وتبدو وكأنها ستنهار مع أول لمسة، ولكن الباب يفتح أخيرًا، ليكشف عن ردهة صغيرة غارقة في الظلال. داخل هذه المنازل، يمكنك أن تشعر بتباطؤ الزمن؛ الهواء خانق، يعبق برائحة قديمة من خشب مبلل وقليل من العفن الذي يعشش في الزوايا المهملة. الأرض مغطاة بسجادة قديمة، تآكلت أطرافها، كما لو أنها كانت هناك منذ عدة أجيال.

الأثاث، رغم ما يبدو عليه من أناقة قديمة، فقد فقد بريقه تمامًا. الكراسي منجدّة بأقمشة باهتة وقديمة، بينما الطاولات مغطاة بغبار كثيف، مع بضع كتب مكدسة على حافة طاولة قريبة. في الزوايا، توجد بعض الصور العائلية القديمة، إطارها فضي باهت، وجوه غامضة تحمل شيئًا من الكآبة، كأنها تتحدث عن أسرار لا يفترض أن نعلمها. بعض الأثاث يبدو وكأنه تم نقله من مكان لآخر عدة مرات، مما يعزز الشعور بأن المكان غير مستقر، كأن هناك شيئًا غير مرئي يراقب كل حركة.

.

إذا مررت بالقرب من هذه المنازل في ساعات المساء، عندما يبدأ ضوء القمر في الانعكاس على الجدران المتهالكة، ستشعر بشيء غير مريح يتسرب إلى قلبك. الهواء يملؤه صمت غريب، ويدفعك فضولك لاستكشاف هذه البيوت المهجورة، رغم أن كل شيء فيك يحذرك من أن هناك شيئًا قد لا يكون في مكانه الصحيح، شيئًا قد يبدو تافهًا أو عاديًا في البداية، لكنه بالتأكيد لا يسير كما ينبغي .

في منعرجات الطريق الجبلي تتهادى سيارة قولف من نوع فولسواقن جتا حمراء محاولة الصعود نحو الضفة الأخرى من الجبل بينما الغبار يتصاعد من الجوانب كانت خلف المقود فتاة عشرينية تكابد للسيطرة على السيارة و تركها على المسار الصحيح يعلوها تقطيب خفيف بين حاجبيها بينما تشتد شفتيها في خط مستقيم ينم عن توترها و شدة تركيزها انطلقت بهدوء، حافظت على سرعة منخفضة، وكأن السيارة تتنفس معها بتؤدة. اعتمدت على الغيارات اليدوية، تثق بإحساسها أكثر من اعتمادها على المكابح وحدها، فاستخدمت الغيار الأول والثاني في الصعود والهبوط، تمسك بالمقود كما لو أنها تقود قلبها بين الحواف. كل منعطف كان اختبارًا جديدًا تُبطئ قبله كانت الأضواء الأمامية تعمل حتى في وضح النهار فالضباب هنا لا يحتاج إلى دعوة عندما وصلت للضفة الأخرى تنفست الصعداء و هي تقرأ لافتة خشبية حفر عليها بمسامسر حديدية "الظليل يرحب بكم " واصلت القيادة , المكان هنا هادئ على غير العادة

كان سكونا غريبا ,التفت السيارة بين البيوت بينما كانت عيون الفتاة السمراء تتلفت يمينا و يسارا بحثا عن شخص ما يدلها عندما رأت شبح رجل عجوز يخرج من منزله فأوقفت السيارة و ترجلت مسرعة نحوه و صرخت : "سيدي هل بمكنك الأنتظار لحضة من فضلك..... عمى عمى " لكن الرجل لم يهتم التفت لها و جالت عينيه من رأسها لأخمص قدميها ثم استقرت على عينيها بطريقة غريبة تبعث الريبة فتراجعت الفتاة بتردد و غبرت رأيها بسؤاله و هرعت ثانية للسيارة بينما تبعتها عبون العجوز من الخلف ,واصلت الفتاة القيادة بحثا عن شخص أخر يدلها عن مكان اقامة تقضي فيه ليلتها قبل هطول الليل .تقدمت السيارة في الطريق الترابيى الضيق ببطئ عندما أضائت عينى الفتاة البنيتين و هي تقرأ لافتة صفراء كتب عليها "مطعم دجاج مسلوق" أوقفت السيارة بسرعة و ترجلت ثم تقدمت نحو المبني كانت الشمس حينها تومض وتخبو كنبض قلب يحتضر مهددة بالزوال توقفت الفتاة أمام المبنى، عيناها تتنقلان بين حوافه و جدرانه المطلية بلون هو مزيج بين رماد المطر ودمعة قديمة جفّت على حجر الخشب متآكل، لا من الزمن، بل كأنه يُؤكل ببطء من الداخل... كأن الذكريات فيه تمضغ نفسها , بابه لم يكن مغلقًا، لكنه لم يكن مفتوحًا أيضًا... فقط موارب، كجفن عين لا تريد أن تستيقظ كان كل شيء في المكان ساكنًا، لا صوت، لا حركة، حتى الرياح كانت تتجنب الاقتراب. وعندما نظرت الفتاة إلى الباب مرة أخرى، شعرت بيدها ترتجف، ولكنها لم تستطع أن تبتعد كان عليها الدخول اذ فات أوان عودتها الان ,

دفعت الباب فانقرع جرس صغير علق عليه معلما أصحاب المكان بقدوم الزوار فقابلتها رائحة توابل الدجاج تغريها بالتقدم مدغدغة خياشيمها في دعوة لا تحمل نية لرفضها عندما تخطت عتبة الباب لاحضت زوج اعين زرقاء لامرأة اربعينيية ترتدي فستانا ازرق بلون السماء الباهة ووشاحا ابيض مزين بورود الدانتيل يكتسح كتفيها المقوسين , تضع حمرة ورديية خفيفة و تزين رقبتها بعقد اصفر بدأ يخسر لونه , عندما تقدمت الفتاة من المرأة خلف طاولة الاستقبال وقفت المرأة و أحنت رأسها قليلا لتحيتها فابتسمت الفتاة و حيتها :
مرحبا سيدتي كيف حالك اسمي عذراء
قطبت المرأة جبينها فى حيرة من لهجة الزائر المتطفل لكنها أجابت باحترام محاولة تقليد لهجتها بقدر الامكان و أجابت : مرحبا بك انستي انا سيلا صاحبة هذا المكان كيف يمكنني مساعدتكي؟
ردت عذراء بفرح لوجود شخص مستعد للمساعدة : حسنا انا لست من هنا لقد كنت أقود ليومين في طريقي لمنتجع الضلال السبعة لكن يبدو انني ضللت الطريق
ابتسمت المرأة بلطف و فرقعت أصابعها في فتور مثل قطة سوداء ملة ثم تثائبت

و دارت حول المنضدة الخشبية ، وقد بدا أن خطواتها لا تمس الأرض بل تعوم فوقها، كما لو كانت تتبع إيقاعًا سريًا لا يسمعه سواها. جلست قبالة عذراء، وأمالت رأسها قليلًا، تنظر إلى عيني الفتاة بنظرة تحاكي رقة النسمات و برود الجليد :" اه يا لكي من فتاة صغيرة مسكينة انا اسفة من أجلكي لكن الطريق طويل، موشوم بالضباب والانعطافات...
وأخشى أن أخبرك، حتى وإن وصلتِ، فإن المنتجع... قد أُغلق."
رمشت عذراء وقد انعكست في عينيها دهشة تلامس حدود الذعر : "ولكن... لا يمكن أخبريني، هل هناك خطب ما؟ لمَ أغلقوه؟ ما الذي حدث هناك؟ لقد قمت بالحجز منذ أسبوع و كان الأمر على ما يرام "
اطرقت المرأة رأسها و خطت للخلف خطوة تبحث عن شيء ما حين سمع صوت مواء قطة صغير و سرعان ما أطلت قطة بيضاء بفرو حريري و عيون ياقوتيية خضراء و ارتمت في أحضان المرأة التي شرعت في تمسيد فروها و اعادت انتباهها لعذراء و أجابت بصوتها الذي ما زال رقيقًا، لكنه اكتسب ظلًا خافتًا لا تفسير له :" لا تسألي كثيرًا يا عذراء، فبعض الأبواب تُغلق لا لأن لا أحد يرغب بالدخول، بل لأن ما بداخلها... لم يعد يرغب بالزائرين ," سكتت لحظة، تنظر إلى الموقد الصغير في الزاوية و واصلت التحدث :يبدو أن صاحبه قد توفي في حريق لقد احترق ميتا ههه ياله من رجل مسكين لكنه استحق ذالك أليس كذالك يا مومو "
عتدها مائت القطة بنضرة شرسة توافق سيدتها

لكن لا تخافي، لن أتركِكِ في العراء با صغيرتي يبدو أن السياقة خلف المقود كل هذا الوقت ستيبس ضهركي و أطرافكي و قد تغفين بسبب التعب و تكسر رقبتكي خلف المقود من يدري ان المنحدرات الجبلييية خطرة في الليل " ارتعبت عذراء و تعرق عمودها الفقري بقشعريرة ضربت أخر نقطة تحمل داخلها و ردت :" لكنني لا أعرف أحدا هنا قد لا املك حلا غير المغادرة و القيادة حتى اقابل فندقا على الأقل شكرا لكي سيدتي أعتذر على تضييع وقتكي " و استدارت على عقبيها مغادرة المطعم حينها أضافت المرأة : إن كنتِ تصرّين على البقاء هذه الليلة فثمة غرف فوق المبنى الحجري لمطعمنا القديم.

كثيرون من الزائرين ينامون فيها حين تُغلق الطرق، أو حين يضيعون " استدارت عذراء متسائلة : "هل الغرف آمنة؟ تبدو متهالكة و قديمة"

-كل مكان آمن... حتى تصغين لصمته اجابت السيدة بابتسامة لطيفة تراجعت عذراء خطوة، تتفحص وجه المرأة، تشعر أن شيئًا فيه لا يتغير، كأنه قناع مصنوع من الهدوء : هل بات أحد هناك... مؤخرًا؟

أجابت السيدة : كان هناك شابٌ الأسبوع الماضي أخبرني انه أتى للعمل هنا انه يساعد سكان القرية في ترميم الجسر ربما رأيته حين مررتي بجانب النهر لقد فقدنا الكثيرين في ذالك النهر المشؤوم قبل أن يقرر العمدة ترميمه ذالك الكريه

لكن المرأة شهقت معتذرة لها حين ما أفلتت تلك الكلمات السيئة منها مسترسلة في الحديث :" انه شاب لطيف و محترم لا تقلقي كما أنكي قد لا تلتقين به اليوم لأنه أخبرني أنه سيعمل ساعات اظافيية في المساء ما رأيكي "
تسود لحظة صمت، لا شيء سوى صوت عقرب ساعة قديمة ينبض بثبات مريب اقتربت المرأة و تناولت مصباحًا زيتياً، ترفعه بينهما مواصلة التحدث : إن أردتِ، خذي المصباح واصعدي.
الغرفة الثالثة من اليسار
لا تفتحي النافذة إن سمعتِ أحدًا يهمس باسمك، ولا تنظري أسفل السرير...
إن كنتِ تؤمنين أن لا أحد يسكن تحته "
نظرت عذراء لها بريبة مندهشة و سألت عن معناه لكن المراة انطلقت في نوبة ضحك و اجابتها" لا تخافي عزيزتي لما أنتي متوترة انه قول مأثور هنا في قرية رم مجرد مزاح اسفة ان اخفتكي اصعدي لغرفتكي الان لا بد أن تكوني متعبة تصبحين على خير "
أخذت عذراء المصباح بيدين متردّدتين، تشدّ على قبضته كمن يحمل سلاحًا لا يُجيد استخدامه. لم تكن متأكدة إن كانت العبارة التي نطقتها المرأة مزاحًا حقًا، أم أن شيئًا ما في نبرتها، في اتساع ضحكتها المفاجئة، كان يُشير إلى ما لا يُقال.

استدارت عذراء ببطء، وخطت نحو الدرج الحجري الذي يتفرّع إلى الطابق العلوي. كانت السلالم ضيقة، قديمة، ملساء من أثر الخطوات، وكلّ عتبة تصدر صوتًا خافتًا كأنها تتنفس أنين من سبقها.
كان الضوء الأصفر الخافت للمصباح يرتجف على الجدران، يُلقي بظلال طويلة وملتوية، تتراقص كلما خطت خطوة. مرّت بجانب نافذة ضيقة مغطاة بستارة من الدانتيل الرمادي، لا يظهر منها سوى السواد الذي خلف الزجاج سوادٌ مطلق، كثقب لا قرار له. كلما صعدت عذراء، شعرت أن الهواء يثقل... كأنّ رطوبة قديمة تسللت إلى صدرها، تحمل معها رائحة عطرٍ باهت وصلت إلى الممر العلوي. الأرضية هناك أكثرً خشونة، والجدران مغطاة بورق باهت اللون، نقشاته باهتة كأنّها تُمحى عمداً بمرورً الوقت ثلاثة أبواب على اليسار.
الأول: مغلق ومكتوب عليه بخط باهت "مشغول"
الثاني: موار قليلاً، لكن الظلام خلفه كان كثيفًا كالغبار.
الثالث: باب خشبي بلون الكستناء، مقبضه بارد، وورقة صغيرة معلقة عليه بخيط رفيع، مكتوب عليها: “فارغ”
مدّت يدها ببطء، وفتحت الباب. كانت الغرفة تُشبه أي غرفة في نُزل ريفي: السرير بغطاء أبيض مشدود بإتقان الستائر سميكة تُغطي نافذة لا تطل على شيء سوى الظلام، وخزانة لها رائحة الخشب العفن والوقت القديم.

لكن عذراء لم تكن غافلة. هناك شيء خاطئ.
ليس مجرد شعور... بل يقين.
ذلك النوع من الخطأ الذي لا تلمحه بعينك، بل تشعر به في لثتك. كحكّة تحت الجلد، أو مثل شخص يقف خلفك في الظل، ولا يلمسك، فقط ينتظر أن تلاحظ.
وضعت المصباح على الطاولة، وكان ضوؤه يترنح مثل قلب شخص على وشك الانهيار.
جسدها مُتجمد. يداها باردتان، لكن عرقًا بدأ يتسلل من خلف رقبتها ببطء لزج.
نظرت إلى السرير...
ثم إلى المسافة تحته. لماذا تنظر؟
لماذا يهمّها أن تعرف ما إذا كان هناك شيء تحته؟
هي لا تؤمن بالخرافات، ولا تؤمن بكلام امرأة قالت إن الأمر مجرد مزحة...
لكن النساء لا يضحكن هكذا،
إلا إذا دفنّ شيئًا لا يجب أن يعود. جثت على ركبتيها نظرت أسفل السرير. لم تصدر الأرضية صوتًا الصمت هنا ذكي، يعرف متى يتواطأ.
طق. طق. الطرق كان هادئًا، لكن فيه شيء يُفسد السكون، كمن يطرق باب نعشك من الداخل.
شهقت. شهقة صغيرة، حادة، كأن خيطًا خفيًا شُدّ فجأة حول عنقها، أو كمن لمح ظلّه يبتسم له من تلقاء نفسه

وبعدها..الهمس.
"عذراء..."
الصوت لم يكن غريبًا.ذلك كان الأسوأ.
الصوت... كان صوتها هي.صوتها حين كانت في السادسة من عمرها، تبكي في فراشها بعد كابوس عن امرأة بلا وجه.الستارة تحرّكت لا ريح لا نافذة مفتوحة لا منطق فقط حركة بطيئة، كأن شيئًا ما خلف القماش يتنفس، و يتسلّى بخوفها ثم صوت آخر
قريب جدًا خلفها في الغرفة ضحكة ضئيلة مكتومة
كأن أحدهم يختبئ خلف الخزانة، أو داخل الجدار
ويضحك بصوت ميت منذ زمن طويل.
استدارت ببطء.
المرآة.
كانت مشروخة... نعم، كانت لكن الآن، الشرخ يتمدد، لا بفعل الزمن، بل كما لو أن شيئًا خلف الزجاج يحاول الخروج.
شرخٌ كالخيوط... خيوط عنكبوت، تمتدّ ببطء، بذكاء، بوعي.
وعذراء...
لأول مرة، لم تعد واثقة إن كانت وحدها. لم يكن الشرخ في المرآة مجرد كسر كان فمًا..فمًا بلا شفتين، يبتسم من خلف الزجاج، يمتد ببطء كما لو أن الزجاج ينفتح على شيء ينتظر منذ وقت طويل جدًا.
ثم خرجت اليدان.
شاحبتان.
بلا جلد تقريبًا.

أطول من اللازم، بأصابع ملتوية، أظافرها كقطع زجاج مكسور، تصدر صريرًا خفيفًا وهي تنقر على حافة المرآة... ثم على الأرض... ثم على قلبها. عذراء لم تصرخ.
كان الصراخ شيئًا عالقًا في حلقها منذ سنوات، جفّ داخله كل ما فعلته أنها تجمدت.
اليدان لم تسحبها بعنف، بل برفق شيطاني... كأن الكيان خلف المرآة يعرف تمامًا كيف يقنعك بالذهاب معه دون مقاومة ثم ابتلعها الزجاج .
الجو تغيّر حين فتحت عينيها، لم تكن في الغرفة كانت في بناية بجدران باهتة، صفراء بشكل مريض، تقشّر لونها كأن الجلد ذاته ينسلخ.
أبواب معدنية نصف مفتوحة، تهتز مع كل تيار هواء لا تعرف من أين يأتي.
الإنارة فوقها ترمش، ليس بسرعة، بل بتردد... وكأنها تفكر في الانطفاء لتمنح الظلمة فرصة أخيرة كل شيء له رائحة الصابون الرخيص الممزوج بالحديد دم جفّ من سنوات ولم يُمسح جيدًا ثم بدأ الهمس أصوات كثيرة متداخلة كأن عشرات الأطفال يتحدثون في وقت واحد، دون أن ينظر أحد منهم إلى الآخر ثم...ضحكة واحدة.
كانت تعرفها ضحكة فتاة صغيرة، عارية، كانت تركض خلفها في حلم تكرر معها لسنوات،
الفتاة ذاتها التي كانت تظهر لها في المدرسة الابتدائية، حين تنطفئ الأنوار فجأة وتجد اسمها مكتوبًا بالطباشير الأحمر على الجدران.
عذراء... تعالي... لقد جاء دوري. الآن دورك.

استدارت، وهناك كانت الفتاة
جسدها هزيل، عظام كتفيها تبرز كأجنحة مكسورة،
.شعرها ملتصق بجبهتها، وابتسامتها... واسعة جدًا
أوسع من اللازم كأن الجلد لا يعرف أين يتوقف
وفي يدها سكين ملطخة بالدماء عذراء تراجعت،
لكن المكان لا يمنحك مساحة كافية الجدران اقتربت.
الأبواب أُغلقت بلا صوت. والممر صار أضيق كأن
البناية تنكمش عليها، كأنها رحم ينتظر أن يلد
مسخا والفتاة بدأت تركض والسكين تلمع في يدها
ولم يكن هناك مكان للاختباء فالغرفة التي ظهرت
خلفها كانت تكتب اسم عذراء على الجدار بدم جديد
بينما غلفها همس الضلال.

جثتان و قلب محطم

رن المنبّه، لكنه انطفأ.
كأنما انسحب منه الزمن.
الساعة الحمراء على طاولة السرير كانت تعرض "3:33"... ثم رمشت... واختفت ثم ظهرت مجددًا "6:06"
جفون عذراء تقاوم العودة إلى العالم، لكن نبضات قلبها تصر على قرع الطبول في أذنيها.
الكابوس ما زال عالقًا في صدرها مثل كتلة زجاج مكسور ذاك الصوت، الهمس المعدني، الأصابع الباردة التي سحبت الغطاء عنها رغم أنها كانت وحدها في الغرفة.
استفاقت.
لكن لم يكن استيقاظًا بالمعنى الطبيعي كان أشبه باجتثاث من قاع بئر شهقة أولى، تلتها رعشة امتدت من أسفل رقبتها حتى أطراف أصابع قدميها.
جلدها كان مبللاً، شعرها عالق بوجهها، ويديها كانتا تقبضان الغطاء كما لو كان شبكة نجاة النهار بدأ بالخارج أصوات طيور، شاحنة قمامة تمر، نباح كلبين يتعاركان على رصيف لكن في داخل غرفتها، شيء من الليل لا يزال يرفض الرحيل.ظلت ممددة، تنظر إلى سقف مائل تغزوه شقوق دقيقة كعروق ميتة قلبها ما زال يدق كما لو أنه يريد أن يهرب وحده دونها لكن البرودة التي زحفت من أسفل، من عند قدميها، أجبرتها على النهوض.
ببطء وحذر

قدماها لامستا الأرضية الباردة — تلك التي كانت، في الحلم، ملطخة بظلال لا تعرف إن كانت دماءً أو طينًا أو شيئًا أسوأ.
وقفت.
صوت طقطقة خفيفة صدر من ركبتها، وشيء في الغرفة بدا وكأنه صمت فجأة ليستمع.
الهواء كان كثيفًا، كأن الغرفة لم تُهوّ منذ سنوات عندها اجتاحتها ذكريات من البارحة وصولها المتعب إلى قرية رم و اغلاق المنتجع لقد صدمها الأمر لم تكتفي بذالك بل حتى الكوابيس التي أرادت الهرب منها امتزجت جميعها معا و قررت ان تحاصرها وتفسد نومها ثم تذكرت أن عليها الاتصال بوالدتها السيدة رهف , امرأة اربعينيية وجهها بيضاوي، ببشرة قمحية ناعمة تحاكي دفء الجنوب، وعينيها واسعتان بلونٍ بني داكن، فيهما لمعة ذكاء وحزن قديم بعد موت زوجها شعرها الأسود الطويل غالبًا ما تتركه منسدلًا بحرية على كتفيها و تارة مموجًا بفعل الريح ابتسامتها نادرة و صوتها منخفض، رخيم، يحمل نبرة امرأة عرفت كيف تحب، وكيف تخسر، دون أن تنكسر , كان عليها ان تتصل بها البارحة و تخبرها عن الأمر لكنها كانت متعبة جدا لتفعل ثم بحثت عن هاتفها بين أغراضها لكن البطارييية كانت فارغة عندما وجدته فوصلته بالشاحن و عندما بحثت في اركان الغرفة لم تجد قرصا كهربائييا فقررت النزول بعد ترتيب أغراضها ووصله بلوحة الشحن اللاسلكي في السبارة

خطت نحو الباب بعد أن ارتدت ثيابها عبارة عن فستان أبيض مموج و حذاء رياضيا رماديا بينما رفعت شعرها على شكل ذيل حصان و بعد أن أعادت ترتيب الغرفة حملت حقيبتها و خطت نحو الباب لكن قبل أن تلمس المقبض، جاء صوت من الجهة المجاورة لها رجل يتحدث، صوته خافت، مشوش كأنما يخرج من مذياع قديم موضوع داخل دلو ماء.

كلمات غير مفهومة، متداخلة، فيها حروف تنزلق وتتصادم كألسنة أفاعي و امرأة ردّت عليه بضحكة ترددت لحظة يدها على وشك أن تلمس مقبض الباب، عندما تسللت تلك الأصوات الغريبة بلعت ريقها وأدارت المقبض ببطء الباب انفتح بصوت خفيف وخلفه وقفت صاحبة المطعم وبجانبها، وقف رجل عذراء لم تره من قبل، ولم يكن يشبه أحدًا من سكان القرية المتعبين الذين مرت بهم البارحة وجوده وحده ملأ الممر الضيق بطاقته الخاصة شيء بين العتمة والسكون، بين الجاذبية والخطر كان طويل القامة، ببشرة نحاسية مشدودة كأنها منحوتة من شمس استوائية، عضلاته مشدودة، لكن بلا استعراض. الجسد كما يجب أن يكون، لا أكثر ولا أقل بكتفين عريضين يعلوهما قميص أبيض مفتوح الأزرار، يكشف عن عظام ترقوة قوية ووشم باهت يمتدّ على الجانب الأيسر من عنقه راسما تنينا بلون داكن، رمادي مائل للسواد، ليس بالصراخ المعتاد للوشوم، بل بلون خافت، كأنه ظل محبوسا في جلده.

رأس التنين كان مرتخيًا، كما لو أنه نائم على رقبته، عيونه مغمضة جزئيًا، لكن فمه نصف مفتوح، يكشف عن أنياب خفية لا تصرخ، بل تُهدد بهدوء عذراء تبعت بعينيها الخط الذي يسلكه جسد التنين متلوّيًا، ناعمًا، ينزلق بهدوء تحت القميص المفتوح ليختفي داخل الظلال التي لم يسمح القماش بكشفها كان من المستحيل تحديد أين ينتهي، لكن الشعور أنه لا ينتهي أبدًا كان أكثر إثارة ثم لاحظت الرسغين حين رفع يده قليلًا لمحت وشمين متناظرين على معصميه كان عبارة على قارب صغير مائل، مصنوع من عظام متشابكة، يطفو على موجة سوداء من الظلال بدل الماء داخل القارب تمثال هيكلي لـ سانتا مويرتي، بثوب ممزق يتطاير كالدخان، تحمل بيدها اليسرى ميزانًا مكسورًا في يدها اليمنى وردة ذابلة، تتساقط منها بتلات سوداء على هيئة قطرات دم خلف التمثال هالة مشقوقة، نصفها مغطى بريش بومة والنصف الآخر بأفعى مجنحة متلوية كأنها تهمس سرًا حول القارب وائر صغيرة تمثل الأرواح الساقطة، بوجوهٍ لا ملامح لها، تسبح في الظلمة، وعين واحدة فقط مفتوحة في كل وجه شعره أسود طويل يصل حتى كتفيه، مربوط من الخلف بخيوط من الجلد، كما لو كان آتيًا من جزيرة بعيدة، حيث لا شيء سوى البحر والنار لكن أكثر ما شدّها... كانت عيناه , رماديتان جامدتان في مظهرهما تتسلل ة تعري روحك ثم تسلبها ابتسم، لا بوجهه، بل بنصف زاوية فمه فقط.

عذراء شعرت بحرارة خفيفة تصعد من عنقها حتى أذنيها، شيء غير مرئي وغير قابل للشرح.
كان من النوع الذي لا يسأل "من أنتِ؟" بل يجعل الآخر يشكك في هويته لمجرد أنه وقف أمامه
التفتت المرأة نحوها عندما أحست بوجودها ثم ابتسمت قائلة : " صباح الخير عزيزتي هل كانت ليلتك مريحة "
جينها تذكرت عذراء كابوسها فتلعثمت و أجابت :" أ..أجل شكرا لكي سيدتي سأغادر الأن "
بدت المرأة في حيرة عند سماعها و ردت في نبرة حزينة :" أوه حقا لقد كنت سعيدة بحصولي على بعض الرفقة لا يأتي الكثيرون هنا و مع ذالك أتمنى لكي رحلة موفقة" ثم التفتت مظيفة " لقد كدت أن أنسى لا تعبري الطريق الجبلي في العودة لقد هطلت أمطار غزيرة البارحة مما جعل الطرق الجبلية موحلة بسبب فيضان النهر " زادت صدمة عذراء وهي تستمع لكلماتها متسائلة ان كان الأمر سيزداد سوءا فهي لا تستطيع البقاء هنا هذا مستحيل تصببت عرقا وهي تسأل راجية الله أن يكون هناك مخرج" ألا يوجد طريق أخر" عندها سمعت صوته عميقا و مثيرا يزعزع كيانك مثل أول تلاطم للأمواج بطول اربعين قدما " بمكنك الدوران حول القرية من جهة الشمال و اقطعي طريق الغابة لكن ستستغرقين وقتا أطول من الوقت الذي قطعته في القدوم اظافة أن المكان مخيف في الليل بالنسبة لأنسة صغيرة "

سادت لحظة من الصمت، ثقيلة كالسحب الملبدة فوق قمة الجبل، تتخللها فقط شهقة خافتة من عذراء التي لم تصدق أذنيها ثم رفعت رأسها ببطء، وعيناها تلتمعان ببريق حادّ كأن شرارةً اشتعلت خلف نظرتها قالت بصوت منخفض لكن مشبع بالقوة : “عفوا أنسة صغيرة؟" خطت نحوه خطوة، كأنها تلغي المسافة بينهما بكبرياء الجبال، وأردفت :” "هل تراك تنظر إليّ فتظنني من تلك الأرواح المرتعشة التي تنكسر أمام أول ظلّ؟ أهذا ما يجعلك تظن نفسك وصيًّا على قراراتي؟" شهقت المضيفة، وارتبكت قليلاً، لكن عذراء لم تتوقف.

— "أنا عبرت الطريق الجبلي وحدي، ولم أنتظر فارسًا يمتطي جواده ليعلمني ما يُخيف وما لا يُخيف. الغابة قد تكون موحشة... لكن الوصاية أثقل ظلامًا منها." كانت كلمتها الأخيرة كالسهم، انفلت من قوس مشدود بالصبر الطويل لم يُجِب لوهلة، فقط حدّق فيها بنظرة لم تُدرَك بسهولة مزيج من الاستفزاز والإعجاب الخفي. ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة، لكن عذراء أدارت وجهها عنه كأنها لا تمنحه حتى متعة الرد .

وهنا، تدخلت المرأة وقد ارتبكت ملامحها بين الحرج والإشفاق: "أوه، أرجوكما! لا داعي لكل هذا... عذراء، عزيزتي، هذا هو السيد مورتيفاروس ، كما قلت لك... المستأجر في الغرفة المجاورة لك. الرجل الذي كنت أخبرك عنه ليلة أمس." ثم التفتت إلى مورتيفاروس : "وهذه الآنسة عذراء، ضيفتنا الجديدة لقد أرادت زيارة منتجع السيد حسام لكنها لم تكن تعرف ما حصل و أن المنتجع اغلق " تلاقت نظرات الاثنين لوهلة، صامتة، ولكنها مشتعلة. شيء ما في الهواء تغيّر... لم يعد مجرد جدال، بل بداية اشتباك داخلي لن تُطفأ جذوته بسهولة . عندها انسحب مورتيفاروس بعد أن ألقى التحية على السيدتين معتذرا اذ ينتظره باقي العمال من أجل مواصلة العمل على الجسر ثم غاب ظلّ مورتيفاروس مع آخر خطواته، غير أن أثر وجوده بقى معلّقًا فى الهواء كدخان لم يهدأ بعد، يشقّ أنفاس الغرفة ويثقلها. لم تكن عذراء بحاجة إلى النظر إلى "سيلا" لتعرف أنها تراقبها و تزن انفعالها تقدّمت سيلا بخطًى بطيئة نحو الدرج لتنزل ، بينما ألقت بعبارة بدت بريئة، لكنها تحمل دفئًا واضحًا:

"أعددت لكِ شيئًا من الخبز الريفي والبيض الطازج... ورشت عليه القليل من الزعتر الجبلي. أتعلمين؟ الطعام هنا لا يشبه شيئًا مما تذوقته في المدن."
ترددت عذراء، لم تكن جائعة بقدر ما كانت متعبة، مثقلة بالصوت العميق الذي ارتطم بجدار قلبها ثم انسحب، كأن كل حواسها لم تفق بعد من تلك المواجهة القصيرة.
قالت، وهي تنظر إلى النافذة المكسوة بندى الفجر: "أشكركِ، سيلا... لكن... عليّ أن أشحن هاتفي أولًا، أحتاج للاتصال بأمي. وعدتها أن أطمئنها حين أصل." رفعت سيلا حاجبها، وضغطت على المنديل الذي كانت تمسكه كأنها تُعيد ضبط مزاجها، ثم قالت بصوت خفيض، لكنه لا يخلو من العزم:"اتصلي بها إذًا، ولا تدعي قلب أمٍّ يرتجف. لكن بعد ذلك... ستفطرين معي، اتفقنا؟"
نظرت إليها عذراء، فوجدت في عينيها شيئًا أشبه بالحنين، كأن المرأة تحاول أن تُمسك ببعض الرفقة قبل أن ينقضي النهار. ثم تنهدت ببطء وقالت: "اتفقنا." هبطت عذراء الدرج الخشبي بصمت، وخرير البرد يتسلل من بين أخشاب النوافذ كأن البناية نفسها نهمس لها أن تعود، أن تبقى في الدفء. لكنها تابعت طريقها، تلتف بمعطفها وتضم حقيبتها إلى صدرها خرجت من الباب الرئيسي، والهواء في الخارج كان يحمل نكهة الطين والمطر

القديم، ممتزجًا برائحة أوراق الأشجار الرطبة.
الشمس بالكاد رفعت جبينها خلف الجبال، وأضواؤها الخجولة تلامس السيارة التي ركنتُها الليلة الماضية أمام المطعم فتحت الباب، وجلست في المقعد الأمامي، وأدارت زر التشغيل ليبثَّ القليل من الدفء في العروق الباردة. أخرجت هاتفها من الحقيبة، أوصلته بالشاحن، وما إن بدأ ينبض بالحياة حتى ضغطت زر الاتصال باسم "أمي".
الصمت... ثم نغمة الرنين... ثم فجأة صوت التسجيل: "الهاتف الذي تحاول الاتصال به مشغول حاليًا، الرجاء المحاولة لاحقًا." رمشت عذراء مرتين، تملّكها شيء من الانزعاج، لا قلقًا، بل إحساسٌ طفولي بالإهمال. تنهدت، ثم ضغطت على زر التسجيل الصوتي، وهمست بنبرة ناعمة:
"صباح الخير، ماما... وصلت بخير، لكن المنتجع مغلق، وقد اضطررت للنزول في نزل ريفي صغير. الجو هنا غريب... لا أعرف لقد عادت الكوابيس ثانية و أنا ....أه فقط اتصلي بي أنا أحتاجكي " لكنها تنهدت ثم عادت و محت الرسالة و سجلت أخرى"صباح الخير، ماما... وصلت بخير، لكن المنتجع مغلق، وقد اضطررت للنزول في نزل ريفي صغير أظن أنكي نائمة الأن لذا لا تقلقي عاودي الاتصال بي عندما تستيقظين " أنهت الرسالة، وقبل أن تعيد الهاتف إلى مكانه، لمحت من خلال الزجاج المتشح بالندى حركة غريبة في البعيد.

كانوا مجموعة رجال، خمسة أو ستة، يحملون أدوات بناء: فؤوس، حبال، ألواح خشب، ويتحركون بتناغم عجيب، كأن كل منهم يحفظ موضع قدم الآخر. في مقدّمتهم رجل بملامح صارمة، يرتدي معطفًا أسود طويلًا وقبعة بيدو كأنه قسٌّ لم يكن يوجّههم بكلمات، بل بنظراته ثم، في آخر الصفّ، كان هو... مورتيفاروس كان يسير بخطًى بطيئة، يده على مقبض أداة حديدية، قبّعته تميل قليلاً إلى الأمام فتحجب جزءًا من وجهه، إلا أن عينيه تلمعان تحتها... كوميض خنجر في عتمة رفع قبعته حين رآها، في تحيّة صامتة، وعلى زاوية فمه ارتسمت ابتسامة لا تسميها ودًّا، بل شيئًا يشبه السخرية، أو ربما التحدي ارتجف شيء في صدر عذراء، مزيج من الغضب والارتباك، لكنها تمالكت نفسها، ورمقته بنظرة باردة، ثم أدارت وجهها عنه تمامًا، وخرجت من السيارة، مغلقة الباب خلفها بعزمٍ واضح لم تنظر خلفها، ولم تهرول... لكنها مشت بخطًى ثابتة، كأنها تسير فوق تلك النظرة بل تدوسها عادت إلى النزل، وفتحت باب المطعم بهدوء ان الجو دافئًا هناك، رائحة الزعتر المغلي تفوح في المكان، وصوت غليان إبريق الشاي يملأ الزوايا. كانت سيلا تنتظرها، جالسة إلى الطاولة، والمائدة مرتبة بدقة تفيض حنانًا: خبز محمّص، بيض مسلوق، وعاء من الزيتون الأسود، وكوبان من الشاي. لوهلة كادت أن تنسى تصرفات هذه المرأة الغريبة البارحة أذ خيل اليها أنها امرأة أخرى مختلفة تماما

رفعت رأسها وابتسمت:" "ها قد عدتِ... هل طمأنتِ والدتكِ؟"
هزّت عذراء رأسها، وأجابت بنبرة خافتة:
"كانت مشغولة... تركت لها رسالة." ثم جلست على الكرسي الخشبي أمامها كوب الشاي، وعلى الطاولة سكينة صغيرة تلمع بجوار طبق الزبدة. كل شيء في الغرفة يبدو بسيطًا، مألوفًا... ومع ذلك، بداخلها، كان العالم أبعد ما يكون عن السكينة.
راقبتها سيلا بنصف ابتسامة، تشرب من كوبها ببطء، ثم قالت بنبرة ناعمة لكنها دقيقة كطرف إبرة:"رأيته ينظر إليكِ " توقفت عذراء عن تقطيع الخبز، ورفعت بصرها نحو سيلا كمن دُفع إلى الحافة فجأة، لكنّها تمالكت نفسها، وردّت بجفاف:" "ربما... إنه يجيد النظر بطريقة مزعجة." ضحكت سيلا، ضحكة قصيرة خفيفة، أشبه بشهيق مكتوم: "صدّقيني... لا أحد هنا ينظر إلى أحد. الناس في هذه القرية تعلّمت ألا تفتح نوافذها حتى في النهار. وجوده مختلف... يلفت النظر رغماً عنّا."
سألتها عذراء بنبرة أكثر حذرًا: "هل تعرفينه؟"
هزّت سيلا كتفيها، وتنهّدت كمن يعترف بعجزه:"ليس كثيرًا... استأجر الغرفة منذ أقل من شهر. قال إنه جاء للعمل على الجسر القديم.... يدفع نقدًا، لا يطلب شيئًا، لا يتأخر، ولا يتحدث كثيرًا."

ثم نظرت إليها مباشرة هذه المرة، وأضافت:"لكن هناك شيء فيه... لا أدري، يشبه الرجال الذين لا يمكن الوثوق بهم، ولا يمكن كرههم في الوقت ذاته."
أطرقت عذراء رأسها، تنقّل بصرها بين أطراف المائدة، ثم قالت ببطء، كأنها تفكك اعترافًا بصوت عالٍ:
"أزعجني... لأنه تحدث إليّ كأنني... طفلة. كأنني لا أعرف العالم." أجابت سيلا بابتسامة صغيرة:" إنه فقط لا يتوقع مقاومة. الرجال من طينته يعتقدون أن كل شيء يجب أن ينصاع لهم... حتى العيون." رفعت عذراء عينيها وسألتها: "وهل لا يُزعجك أن رجلاً كهذا يسكن هنا؟"
أجابت سيلا وهي تنهض لتعيد إبريق الشاي إلى الموقد:
"لو كنت أصغر بخمس عشرة سنة... ربما كان سيزعجني جداً. لكنني الآن أراقب فقط، وأقدّر صمت من لا يُكثر التبرير." قالت عذراء، وهي تضع الشاي جانبًا: "وهل تثقين به؟" "أنا لا أثق بأحد يا عزيزتي... لكنني لا أخشاه. وأنتِ... يجب أن لا تدعي كبرياءكِ يحجب بصيرتكِ." رمشت عذراء، ثم قالت ببطء:"ما الذي تعنينه؟" نهضت سيلا، وسارت نحو الموقد لتسكب المزيد من الشاي، ثم أجابت دون أن تلتفت:"أعني... أن بعض الرجال لا يُقاتَلون بالكلمات، بل يُفهمون بالأفعال. ومورتيفاروس... يبدو من النوع اللذي لا ينسى من نظر إليه نظرة ندّ."

كان الشاي قد برد قليلًا، لكن نكهته بقيت في الفم كثقلٍ طفيف، كذكرى لا تريد أن تغادر.
تأمّلتْ عذراء أطراف المائدة، ثم قالت بنبرة أقرب للفضول المغلّف بالريبة:
"سيلا... هل هذه القرية هي الظليل؟" رفعت سيلا رأسها ببطء، وكأن الاسم أيقظ شيئًا في داخلها.
وضعت الكوب جانبًا، ومسحت يديها بمنديل قطنيّ بنقوش باهتة قبل أن تجيب:
— "نعم... اسمها الرسمي قرية الظليل قليلون فقط مازالوا يستخدمون الاسم، معظم الخرائط لا تضعها أصلًا. أحيانًا تظهر على أجهزة تحديد المواقع، وأحيانًا تُمحى... كما لو أنها لا تريد أن تُوجَد."تقلّصت حدقة عذراء، وسألت هامسة:"لكن لماذا؟ لماذا يُعامَل مكانٌ كهذا وكأنه... غير مرئيي؟" أجابت سيلا، وقد غيّرت نبرة صوتها إلى شيء أقرب للهمس:"لأنها ليست قرية كباقي القرى، يا فتاتي فيها صمت لا يُقال... لكنه يُشعر. حين تعيشين هنا، تدركين أنه لا يشبه الصمت العادي... إنه صمتٌ له روح، له نظرات، له ذاكرة. أحيانًا يثقل كالحِداد... وأحيانًا يتهامس من خلف الجدران." ثم أضافت، بنبرة أكثر جدّية:" نحن لا نتحدث لا عن الماضي، ولا عن الجسر، ولا عن رم. النهر... لا يُذكر اسمه كثيرًا هنا. بل يُشار إليه بإيماءة، أو يُتجاهَل كأنه غير موجود، رغم أنه يسمع ويَرى..." تعلّقت نظرات عذراء بوجه سيلا، تحاول أن تفكّك الملامح، أن تبحث عن ظلّ تلميح:
— "والجسر؟ لم أركِ تهتمّين له كثيرًا... مع أنه يبدو كتهديد دائم، يفيض مع رم، ويقاطع الطريق."

تنحنحت سيلا، ومسحت حافة الفنجان بإبهامها، كأنها تزيل أثر زمن عالق:"الجسر هو قلب الظليل... لكنه قلب مكسور. كل سنة يُرمَّم، كل سنة ينهار. يأتي العمال، يُنصب الخشب، يُسند بالحجارة، لكن لا أحد يجرؤ على أن يقول: 'سيصمد' لأننا نعلم... أن رم لا يسمح بالعبور إلا حين يشاء." "الغابة التي تعانق الضفة الأخرى... ليست مجرد أشجار. هناك شيء هناك. شيء قديم. شيء لا يحب أن يُقترب منه. يقولون إن ما دُفن فيها لم يمت... وإن رم، حين يفيض، يذكرنا فقط بأنه لم ينسَ."صمتت، ثم أضافت بنبرة خافتة، كأنها تسرد حلمًا لا تريد أن تستفيق منه مثل شخص يهلوس أو يهذي :"لكن ما الذي أعرفه أنا؟ عجوز تُقدّم الشاي، وتبدّل الأغطية، وتُطفئ الأنوار باكرًا... فقط لتتجنّب أن ترى ما قد ينظر إليها من خلف النوافذ." عندها اتسعت ابتسامتها بشكل غريب و مقلق وشخصت عينيها نحوها ابتلعت عذراء ريقها، والهواء في صدرها أثقل مما كان. قالت: "شكرا لكي هلى الشاي أظن أنه من الافظل أن أخرج قليلا لأنظر حولي معذرة"
عندما تركت عذراء النزل خلفها بدا لم تكن الشمس ساطعة، بل عالقة بين الغيم كجثة ضائعة. الضوء رمادي، ناعم كالرماد، والطرقات خالية بطريقة غير مريحة. حذاؤها أحدث صوتًا مكتومًا فوق الحصى الرطب مشت على الطريق الرئيسي صفان من البيوت القديمة، بواجهات شاحبة ونوافذ تشبه عيونًا نصف مغلقة، ترمقك بلا ترحيب. غسيل قديم يتحرّك فوق حبل

ثم، حين مرت قرب أحد المنازل، سمعت شيئًا...
صوت خفيف، يشبه أنينًا... أو كان ربما نغمةً
موسيقية، تخرج من مذياع قديم خلف نافذة مغلقة
بستائر كثيفة.
توقفت.
الصوت اختفى.
تراجعت خطوة. الصوت عاد، أقرب أنصتت. كانت
أغنية قديمة، بالكاد مفهومة، لكن الإيقاع... لم
يكن مريحًا. كأن الأغنية تُعيد نفسها. نفس
المقطع. مرة بعد مرة ابتعدت بخطوات أسرع عبرت
بئرًا قديمًا، عليه لوح خشبي مهترئ مكتوب عليه
بالطلاء الأحمر:
"لا تقترب. الأرض غير مستقرة."
لكن البئر كان جافًا ورغم ذلك... بدا كأنه يتنفس
واصلت المشي. وصلت إلى زاوية حيث تتقاطع
الطرق الثلاثة: أحدها يؤدي إلى الجسر.
آخر إلى الغابة وثالثٌ إلى السوق الصغير، كما
قالت سيلا اختارت الثالث. أرادت شيئًا مألوفًا... أي
شيء يُشبه الحياة لكن حتى السوق، إن جاز
تسميته كذلك، بدا كأنه شيء نُقل من حلم شخص
ميت. كشك خشبي، باب معدني نصف مغلق،
وسيدة طاعنة في السن تجلس على كرسي
خشبي مائل كأنها كانت تنتظر منذ قرن أن تبيع
شيئًا واحدًا. رجلان يتجادلان قرب صندوق طماطم
فاسدة

امرأة شابة أمام كشك الحبوب، تحمل كيسًا فارغًا لم تملأه بعد طفل يقف قرب عربة عسل، يراقب الذباب دون أن يحرّك ساكنًا... كأنّه من الشمع. رائحة التراب المبتلّ ممزوجة بعطر قديم... كأنه عالق في قماش الأرواح لا في أجساد البشر الأكشاك كثيرة، لكنها مكتظة بأشياء لا تُشترى مرآة مغطاة بغشاء غريب – كأن أحدًا تنفّس عليها من الداخل.

قفازات جلدية بحجم غير بشري قِدر نحاسي ينبض بخفة تحت ضوء الشمس... نعم، ينبض، كقلب حي. مشت عذراء بخطى بطيئة رأت امرأة تبيع التوابل... جميعها سوداء. لا أسماء، لا ملصقات.

ورجل يبيع طيورًا... ليست في أقفاص، بل متكومة، نائمة، تتنفس معًا كجسد واحد وعندما عبرت أمام كشك الجرائد القديمة، رأت صحيفة بتاريخ اليوم "انهيار جديد في الجسر... غريقان على الأقل." رفّت عيناها إلى الأعلى، والدم يتجمّد في أطراف أصابعها الجسر؟ مرة أخرى؟ لكن سيلا لم تذكر أي شيء عن حادث اليوم رفعت الصحيفة ببطء، تهمّ بأن تتحقق من التاريخ، فشعرت بحركة على الجانب كانٍ البائع هناك لم يكن عجوزًا كما توقعت. بل... كهلًا في أوائل الثلاثين صوت ناعم، هادئ، مثل نسمة فجر تتسلّل من نافذة قديمة، قطع ارتباكها:"أهي أول زيارة لكِ إلى الظليل؟" رفعت نظرها لتقابله كان شعره أشقر فاتحا يكاد يعكس الضوء، يتدلّى بحرّية فوق جبهته

عيناه زرقاوان، بلون بحيرة في ساعة صفاء نادرة وجهه وسيم، مألوف بشكل مقلق، كأنها رأته في حلمٍ نسيته... أو في كابوس نكرانٍ حلو ابتسم، ابتسامة دافئة، لكنها لم تصل إلى عينيه بالكامل قالت بتردد، وهي تشير إلى الجريدة :" "هل هذا... صحيح؟ هذا الخبر؟ حصل اليوم؟" أومأ برأسه بهدوء، ثم رفع كتفيه قليلًا بسخرية:"كما يبدو. الجسر لا يحب المطر" شهقت بخفوت، ثم تابعت: "غريقان... من؟ من مات؟" هزّ رأسه بنفي ناعم:" من يهتم لا أحد يعرف بعد لكن قيل إن أحدهم كان من العمال الجدد" صمتت. شيء ما في صوته جعل الجلد على ذراعيها يقشعر، رغم اللطافة في ملامحه سألته، بعينين ضيقتين:"وأنت؟ من تكون؟" ابتسم، ومدّ يده بلطف :" كنان أبيع الجرائد... و بعض الكتب "صافحته، فشعرت ببرودة خفيفة ناعمة مثل قطرات الندى قالت، كأنها تهمس لنفسها:"لكنك تبدو... مختلفًا عن الآخرين." ابتسم لها ساحبا يده بينما تتجول عيونه الزرقاء على وجوه المارة قائلا:" الناس هنا انطوائيون قليلا و قد يبدون غرباء للوهلة الأولى لكنهم أشخاص لطيفون حقا " ثم أدار نصف جسده نحو داخل الكشك، حيث الظلال تتكدّس بين رفوف خشبية مائلة، تصطف عليها كتبٌ بنية الحواف، بعضها بلا عناوين، وبعضها بعناوين كُتبت بخط يد قديم، كأنها نُقشت أكثر مما طُبعت

قال، بصوت منخفض كأنّه يهمس لها وحدها رغم ضجيج السوق:"هل تحبين الكتب؟ لدي في الداخل بعضٌ منها... لا تباع كثيرا، لكنها ستكون سعيدة ان قرأها أحدهم" رفعت عذراء حاجبًا، فتابع، بعينين نصف مازحتين ونصف حذرتين:"تستطيعين تسميتها... مكتبة الظليل السرية. لكنها ليست سرية تمامًا، فقط لا أحد يهتمّ بالدخول." قالت، وقد لمعت عيناها قليلًا:"أحب الكتب... أيضا."ضحك بخفة، لكنها كانت ضحكة قصيرة، تلامس سطح الجو ولا تتعداه:"إذًا نحن اثنان."دخلت بخطوة واحدة... ثم أخرى.

الداخل بدا أكبر مما توحيه واجهة الكشك. كأن المكان ينكمش ويتّسع وفقًا لحاجة الداخل. الكتب، مكدّسة حتى السقف، بعضها يحمل أسماءً غريبة لكتاب منسيين أشارت عذراء إلى واحد منها: "هذه العناوين... هل كتابها من الظليل؟" أجاب كنان، وقد مال على حافة رف، كأنّه يتذكّر شيئًا ما:"بعضها... كتبها أشخاص مرّوا من هنا. وبعضها... لا أعرف من كتبها، كانت هنا قبلي. وجدت هذا المكان كما هو عندما كنت أبحث عن عمل ، مع الجرائد، ومع الكتب. قيل لي إن الكشك كان كنيسة صغيرة يومًا ما، أو حجرة كاتبٍ نُسي."ثم التفت إليها، بنظرة جادة لكنها غير ثقيلة: "هل ترغبين أن تأخذي واحدًا؟ على سبيل الإعارة، بالطبع. نحن لا نبيع الذكريات هنا، فقط نستعيرها." ثم غمز لها بمرح دّت يدها نحو كتاب بلون الطين المجفف، لا عنوان له... فقط رمز غريب

على الغلاف يشبه شجرة ذات جذرين قالت، بنبرة أقرب للتساؤل: "وهذا؟" قترب منها كنان، ونظر إلى الكتاب، ثم ابتسم، ابتسامة لا راحة فيها:"أنتِ تختارين جيدًا... لديك نظرة ثاقبة ، لكن إن قرأتِه، يجب أن يُعاد قبل اكتمال القمر."ثم واصل الضحك مع أنها كانت مزحة لم يفهما غيره نظرت إليه، للحظة طويلة. ثم أمسكت بالكتاب.
قالت، بخفة لم تنجُ من رعدة صغيرة في صوتها: "وأنت، كنان... هل تقرأ هذه الكتب؟" أجاب، وهو يشيّع نظراتها للغلاف: "أنا؟ لا... أنا فقط أحب مراقبة من يقرؤونها." عندها ابتسمت بخفة واجابت"أنت بالتأكيد تفعل" فقابلها بابتسامة غزل أشبه بخيطٍ من الحرير يُسحب ببطء على بشرتك دون أن تراه، لكنك تشعر به. لم تكن عريضة، ولا مباشرة، بل مائلة قليلاً إلى جهة القلب، عينه اليسرى ضاقت أكثر بقليل، كما لو أنّه يقرأ فيها سطرًا ما لم يُكتب، وزوايا فمه ارتفعت بنعومة فيها من الدفء بقدر ما فيها من النعومة و الخفة إنها ابتسامة من يعرف تأثيره، لكنه يختار أن يستخدمه بلطف مميت أعادت الكتاب إلى موضعه ببطء، بحذر، كأن الغلاف قد تنفّس حين لمسته، وكأن صفحاته ما تزال تراقبها من بين الشقوق

أصابعها لامست الخشب، ثم انسحبت، مرتجفة، نظرتها لم تُفلت عيناه، لكنها لم تطل المكوث هناك.
قالت، بلهجة مقطوعة، جافة كحافة زجاج مكسور:"شكراً على كرمك، كنان... لكن يجب أن أذهب." أرادت أن تمشي. فقط أن تمشي.
أن تترك المكان قبل أنّ تتكاثر تلك النظرة عليه... النظرة التي لم تكن دعوة، بل فضولًا مشبعًا بنية لا تُفصح.
صوته لحقها مثل حبل حريري يلتفّ حول كاحلها:"لماذا جئتِ إلى الظليل؟" توقفت التفتت وجهها لم يعترف بشيء، لكن عنقها المشدود، وكتفيها المتوترين، كانا يبوحان بالحقيقة.
قالت، بتنهيدة لا تصل إلى الرئتين:"لم آتِ للظليل. كنت متجهة لمنتجع في الجهة الأخرى... ‘منتجع الظلال السبعة لكنهم أغلقوه. مات صاحبه فجأة، كما يبدو. ولم يُخبِر أحد موظفة الحجز أن يُلغى موعدي تهت قليلا في البداية ثم التقيت السيدة سيلا و قدمت لي غرفة في نزلها “ضحكت، ضحكة حادة، قصيرة. ثم تابعت:
ـ "ثم... المطر. الجسر. الطين. وكأنّ القرية ابتلعتني دون أن أسألها." سادت لحظة صمت خفيف بينهما، لم يكن فيه حرج، بل شيء أعمق. شيء يُشبِه إدراكًا غير منطوق

ثم مدّ كِنان يده إلى درج صغير خلفه، وأخرج منه ورقة بلون الفحم، مطويّة بعناية. قدّمها لها قال، وهو يُراقب وجهها أكثر من يديها:"غدًا، مع الغروب، نقيم طقسًا صغيرًا بجانب النهر. نُضيء الشموع، ونُسمّي أرواح الغرقى التي لم تُعثر أجسادها..."
رفعت نظرها إليه، ملامحها لم تُخفِ الدهشة. لكنّها لم تقاطعه
_"ندعوهم للعبور نودّعهم حتى يجدوا الطريق. هذه عادة قديمة في الظليل. والسيد... يساعدهم على اييجاد النور" قالتها بتردد، كما تُجرّب كلمة غريبة لأول مرة:
— "السيد؟"
ابتسم كِنان ابتسامة خفيف:" اجل راعينا تبجل اسمه لا تقلقي قط تعالي سيعجبكي المكان أفضل من البقاء في فندق سيلا االمتداعي ههه "نظرت إلى الورقة بين أصابعها، وكأنها تمسك شيئًا أكبر من وزنها قالت، بنبرة خافتة: "سأفكر..." خرجت عذراء من المتجر، ببطء يشبه خروج شخص من حلمٍ غير مكتمل. الباب الخشبي خلفها أغلق بصوت طفيف، لكنه بدا في أذنها كصرير نعش يُدفع إلى الداخل. الهواء كان أكثر برودة ممّا توقعت، والسماء رمادية بلون الصفيح، مع ضوء خافت يجعل الظلال تبدو أطول من المعتاد

سارت في السوق كأنها تبحث عن شيء ما، لكنها لم تكن تعرف اسمه. الوجوه حولها بدت مألوفة على نحو مقلق، كما لو أنها رأتهم جميعًا في حلمٍ سابق. رجلٌ يبيع تفاحًا مُنكمشًا يحدّق إليها دون أن يرمش. امرأة تمسح طاولة الزهور بينما تغني أغنية للأطفال نظرت إلى الورقة السوداء في يدها، وكأنها تطبع برودتها على الجلد. كانت خفيفة... لكنها أثقل من كل ما تحمله طوتها بعناية، ثم وضعتها في جيب معطفها، ونظرت حولها. لم تكن تنوي السير بعيدًا، لكنها لم ترغب في العودة بعد إلى الفندق المتداعي اتجهت نحو الطريق المنحدر، دون تفكير، فقط بخطى آلية القرية تراجعت وراءها، بصمت مريب. لا أحد ينادي، لا طفل يركض، حتى الريح لم تكن تهبّ. على جانب الطريق، انتصبت الغابة، كثيفة وصامتة، الأشجار هناك، طويلة جدًا أقدم مما يجب. أغصانها مثل عظام ملتوية، والجذوع مغطاة بطحالب رمادية داكنة تشبه بقع الدم الجاف. الهواء تغيّر عند أول خطوة بين الظلال صار أغلظ، رطبًا كانت تنوي الالتفاف والعودة، لولا أن سمعت الصوت.

امرأة... تهمس.

ليست كلمة... بل خيطًا مبلولًا من الهواء الساخن، يتلوّى في أذنها:

"انتي قاتلة "

امرأة قذرة"

"قا..ت..ل...ة"

توقّفت.
تجمد كل شيء فيها.
ثم، بعد لحظة...
بكاء رضيع رقيق، متقطع، كما لو أنه يأتي من بئر عميقة عيناها تقلّبتا وسط الأشجار... لا أحد.
لكن الصوت كان قريبًا. قريبًا بشكل خاطئ.
نادت، دون وعي: "مرحبًا؟! هل هناك أحد؟"
فتهامست الأشجار، لكن الريح لم تكن هناك
تقدّمت خطوة، وأخرى، ثم توقفت عند شجرة مائلة، تمتدّ جذورها كالأصابع الهاربة من قبر و هناك، في جوفها، شيء...
قماش. أبيض لا ليس قماشًا بل ثوبٌ ممزق، رطِبٌ برطوبة الأشياء التي طواها الزمن ولما سحبته، تكشّف المشهد ليس بجثة، بل نُصب حيّ مشوه للخطيئة كانت المرأة هناك، ملقاة على جنبها، كأنها في نومٍ عميق أو في انتظار البعث ميتة، حامل ببطن مكور همس الهواء من جديد... –
"لقد قتلتِني..."
– "وقتلتِه..."
لم يكن الصوت يأتي من فم الجثة، بل من الفراغ المحيط بها، كأن التراب نفسه يتّهمها. ثم... اهتزّ البطن شيء تحته تحرّك.
لا... ليس تحرّكًا طبيعيًا، بل ارتجاجٌ عنيدٌ كقلب يُجبَر على الحياة رغما عن فنائه وفجأة، دون إنذار،
انشق الجلد، شقًّا نظيفًا كضربة من سيف ملعون

وخرجت يد صغيرة... لا بشرية تمامًا، ولا شيطانية، بل شيء بينهما... مزج مروّع بين البراءة والجحيم.
جثت المرأة على ركبتيها، شهقت، ثم تجمّدت.
لأن الطفل... فتح عينيه. سحبت يدها من بطن الجثة كما يسحب المؤمن يده من جرّة ملعونة.
الطفل لم يصرخ. لم يأنّ. لم يبدُ كطفل قط.
كانت عيناه مفتوحتين، بلون العاج المدفون منذ قرون. بشرته رمادية، شفافة، تُظهر عروقًا دقيقة تتحرّك فيها سوائل لا اسم لها.
للحظة... فقط لحظة... ظنّت أنها تتوهّم قالت لنفسها:
– "هذا ليس حقيقياً... هذا كابوس. أنا لم أقتل أحدًا. لم أدفن أحدًا. لم..."
لكن اليد تلك الصغيرة المخيفة رفعت إصبعًا واحدًا... وأشارت إليها.
وفجأة، ارتفعت الجثة ليس ببطء، بل كما يُسحب الطين من بئر جذعها انتصب، رأسها تدلّى جانبًا، وفمها مفتوح كأنه يوشك أن يبتلع العالم لم يكن في وجهها حياة، لكن في حركتها كان هناك شيء أعظم من الحياة... شيء مثل الذنب الذي عاد بجسد.
صرخت عذراء ، وتعثّرت للخلف، سقطت على ظهرها والطين يمتصّ أطرافها كأن الغابة تحاول أن تبتلعها قبل أن تهرب.
نظرت للأعلى، والجثة تقترب، تزحف، تزحف، تزحف...

وذاك الرضيع، لا يصرخ... بل يضحك بصمت، فمه منغلق، لكن صوت الضحك يصدر من حوله.
حاولت أن تقوم... لكن شيئًا ما أمسك بكاحلها لم يكن يدًا بل جذرًا خرج من الأرض، حيًا، لزجًا، يلتفّ على ساقها..."لا أريد الموت... لا أريد الموت"، هتفت بصوت مذبوح، وهي تضرب الطين بيديها، تصرخ كمن يسقط في حلم لا يستفيق. ثم...دوّى الصوت.
لا صوت امرأة، ولا طفل، ولا ريح...
بل صوت رجلٍ يشبه الفجر حين يتكلّم حادّ، نذيري، قدَري.
_"عذراء هلً هذه أنتي" وانفجر الضوء من بين الأشجار. نور أزرق، لا يشبه نور الشمس، بل يشبه وهج الرعد قبل العاصفة ثم توقّفت الجثة توقّف الطفل الجذر ارتخى و اختفى والغابة كلها... سكتت كما تسكت الكنيسة حين يدخلها القديس. وتقدّم... مورتيفاروس كان طويلًا كظل قصر قديم. معطفه الجلدي يلتف حوله رفع يده نحوها ، يناديها , كانت ترتجف، مغطاة بالطين، ثوبها ممزق، عيناها متّسعتان بلا رمش كانت كأنها جنّت ركع بجانبها، لم يلمسها، بل همس: "هل أنتي بخير أنستي " ردّت بصوتٍ خافت، مضطرب :" – "أظنني... لست كذلك..." نظرت عذراء إلى المكان من حولها، الطين الذي بدا أقل لزوجة، الشجرة التي لم تكن ملتوية كما ظنّت، والجثة... التي اختفت ببساطة، كأن الأرض قد صحّحت خطأً بصريًا.
أما الطفل... فلا وجود له. لا صوت، لا عينان عاجيتان، لا شيء.

نظرت إلى مورتيفاروس، الذي بدا الآن أقل شبهاً بظل قصر قديم، وأكثر شبهاً برجلٍ ضائع يرتدي ملابس جلدية دون تفسير.
همست لنفسها، هذه المرة بنبرة شبه فخورة:
– "هلوسة عظيمة وبإخراج ممتاز أيضاً." ثم نظرت إليه وسألته:
– "هل... قلت شيئاً حين وصلت؟"
– "فقط... ناديتك. حسبتكِ نائمة."
– "نائمة؟ في هذا المكان؟ على الأرض؟ وبكل هذا الطين؟"
– "أعتقدتُكِ من محبّي الطبيعة." تنهدت، ونفضت الطين عن ردائها كمن يُبعد ذكرى محرجة أكثر من كونه يزيل وسخًا، وقالت:
– "أتعلم؟ أعتقد أنني لا أحتاج تفسيراً. أحتاج شايًا. وكتابًا جيدًا. وربما... أخصائيًا نفسيًا لطيف اللهجة."
– "أعرف واحدًا. لكنه شبح."
– "يهمني أن لا يرفع صوته فقط."
_"لا أظنه يستطيع فعل ذالك لأنني جعلته أخرسا قبل أن أحوله لشبح"
– "أنا آسفة، ماذا؟"
– "القصة طويلة كان يصرخ كثيرًا مزعج لذا اختصرت الأمر ." نظرت له بغرابة كمن نبتت له أربع عيون فجأة و أكتفت بالقول "لا أظن أن الوضع قد يزداد غرابة أكثر أليس كذالك "

حسنا لا أعلم هذا يعتمد عليك لكن أولا يجب تنظيفكي " ثم أمسك أنفه بحركة تقزز و أظاف تبدو رائحتكي مثل القذارة" رفعت حاجبها، ثم نظرت إلى ردائها المغطى بطين تجمّع في أماكن لا تعرف كيف وصل إليها أصلًا وقالت" أنت تعرف أنه لا يمكنك قول هذا لسيدة " رفع يديه بتهكم و أجاب – "السيدات، كما أفهم، لا يصرخن على الأرض، ولا يتحدثن إلى الجذور، ولا يصدرن رائحة تشبه غرف التخزين في المسالخ المهجورة."

– "آه... فوضوي، ساخر، وعديم التهذيب. ممتاز. كنت قلقة أن تكون مجرد رجل غامض يرتدي الجلد دون سبب"نظر لنفسه ثم مسح معطفه بحركة آلية، وقال بشك وهو يشد الياقة:

– "الجلد يقيك من البرد... ما هو عيبه؟" رفعت حاجبها وقد لمعت عيناها بشيء من التهكم:" ويجعلك تبدو مثل سفاح غريب الأطوار" نظر لها بغرابة وكأن العبارة لم تُثر استياءه بقدر ما أثارت فضوله. ثم قال وهو ينظر إلى طرف معطفه:" اللعنة كيف عرفتي ذالك لقد أثرتي اعجابي" عذراء، التي لم تكن في مزاج يرحّب بالإعجاب من رجلٍ يشبه من يخرج من كتاب جرائم منسيّة، أدارت وجهها إلى الجانب، وأطلقت زفيرًا طويلاً، وكأنها تُفاوض أعصابها على البقاء.

قالت، دون أن تنظر إليه:

– "أتعلم؟ ما أحتاجه الآن هو بعض المسافة... وربما صمت، طويل... يغطّي هذا اليوم بكامله." اقترب منها خطوة، بعفوية لا تخلو من وقاحة خفيفة:
– "مسافة؟ حسناً، لكن اسمحي لي بالتفكير بصوت عالٍ... هل المسافة تساعدكِ على نسيان أنكِ كنتِ تهمسين للجذور؟ لأنني إن نسيت، فالطين الذي تركتِه خلفك لا ينسى." ثم و كأن العبارة قد أرضته على نحوٍ خاص استرسل في الضحك أما ضحكه فلم يكن صاخبًا، ولا مبتذلًا بل كان من النوع الذي يرافق الأشخاص الذين يرون الحياة كمسرحية يسيئون فهمها عمدًا ليستمتعوا بها.
ضحك بهدوء، بصوت متدرّج، يبدأ خافتًا ويعلو قليلاً عند كل نَفَس، وكأنه يعيد سماع جمله الأخيرة داخله ويجدها كل مرة أكثر طرافة استدارت إليه ببطء، نظرة عيناها لم تكن غاضبة تماماً، بل مُتعَبة... من كل شيء.
– "لا بأس، سأسجّل في مذكرتي أني التقيت برجل يرتدي معطفًا جلديًا، يدّعي الحكمة، ويطارد امرأة ملطخة بالطين ليروي لها نكاتاً سخيفة." رفع كفّيه مستسلمًا:
– "أوه، لا حاجة للمطاردة. أنتِ تسيرين في الاتجاه الخاطئ من تلقاء نفسك."
ثم أشار برأسه إلى جدول الماء خلفها.
– "الطريق إلى النقاء من هناك، يا آنستي الصغيرة"

ضاقت عيناها، ثم قالت ببرود:
– "هل يمكننا أن نمرّ على مرحلة ’لا تتكلم معي‘ قبل أن تبدأ بالوعظ؟"
– "طبعاً، لكن لا تتوقعي أن أكون مهذباً وأنا أُنقذك من طينك الخاص."
أشاحت بوجهها، وبدأت تخطو مبتعدة عنه ببطء، خطوات ثقيلة مُشبعة بالضيق، ثم تمتمت دون أن تنظر إليه:
– "هذا يوم سيئ... وقد صار أسوأ بوجودك."ابتسم لنفسه كمن اعتبر العبارة مدحًا مبطّنًا، ثم تمتم بصوت لا يعلو كثيرًا عن خشخشة الريح:”هذا مثير جدا “ لكنها لم تلتفت كانت قد بدأت تمشي، بخطى ثقيلة قليلاً، كأن الأرض تمسك بكاحليها ورغم أنها لم تطلب أن يتبعها، إلا أنه تبعها وصلت إلى حافة النهر، بركة ضيقة ذات ماء صافٍ كأنه لم يُلامس أحد من قبل جلست على صخرة مائلة، سحبت أطراف ثوبها بعناية، وبدأت تغمس كفّيها في الماء البارد.
وقف خلفها، دون أن يقترب كثيرًا، وقال بصوت أقل تهكمًا مما اعتاد:”– "غريب أن يجد المرء امرأة تصرخ في الغابة ثم يدّعي أنها كانت تمرّ بالصدفة." قالت دون أن ترفع عينيها:
– "كنتُ في السوق."
– "الخاص بالقرية؟"
– "نعم."

– "الذي يبعد ساعة ونصفاً مشيًا عن هنا؟"
– "بالضبط."
– "و... قررتِ التوغّل في الغابة؟ لمجرد نزهة؟"
هزّت كتفيها ببطء.
لم يكن في حركتها دفاع ولا تحدٍّ. فقط... انهاك.
– "لم أُخطّط لهذا. فقط... مشيت. ووجدتني هنا."
– "وهذا وحده سبب كافٍ لتصرخي كأن الغابة قررت التهامك؟"
رفعت رأسها نحوه ببطء، نظرتها ليست حادة... بل غائمة قليلاً، كأنها تفكر في أمر لم تقرر بعد إن كانت ستقوله.
– "هل من الضروري أن أشرح كل شيء؟"
– "ليس ضروريًا. لكنّي كنت مارًّا فقط، وسمعت صراخًا... واعتقدت أن شيئًا رهيبًا يحدث." أخفضت بصرها من جديد إلى الماء، ثم قالت بهدوء، نبرة صوتها أشبه بمن يحاول أن يتذكّر نفسه:
– "أحيانًا... نصرخ فقط لأننا صامتون منذ وقت طويل."أخذ خطوة أخرى نحو الماء، جلس على بعد متر منها، وقال بنبرة أكثر هدوءاً هذه المرة، كأن شيئًا تغيّر فيه أيضاً:"يمكنكي التحدث عن الأمر ان أردتي راقبها بصمت وهي تحدّق في سطح الماء، وكأنها تبحث فيه عن شيء أعمق من الانعكاس.

ان النسيم يحرّك خصلات شعرها ببطء، وتلك الطريقة التي كانت ترفع بها يدها لتعيدها خلف أذنها... لم تكن واعية بها. كانت مثل من يتحرك من داخل حلم أثيري قال و صوته بالكاد أعلى من الهمس:
– "أفهم إن لم تكوني مستعدة."
أجفلت قليلاً، كأن كلماته أيقظتها من شرود.
نظرت إليه، وهذه المرة لم تكن نظرتها غائمة، بل فيها بريق شيء ما... شيء مكسور، لكن حقيقي.
– "أنا لا أعرف حتى من أين أبدأ."
قالتها كأنها تعتذر، كأنها تخاف أن يخيب ظنه.
– "ابدئي من حيث بدأ الألم."
قالها دون أن ينظر إليها مباشرة، كأن النظر في عينيها كان يتطلب شجاعة أكبر مما يملك الآن.
مرّت لحظة طويلة بينهما. لم تكن صمتًا عادياً، بل صمتًا من النوع الثقيل القاتل , أخيرًا، قالت، بصوت منخفض، متردّد:
– "كنت أظنّ أنني أعرف نفسي."
ثم ابتسمت بسخرية خفيفة
– "لكنني كلما ابتعدت عن البيت، كلما سرت أكثر... اكتشفت أنني لا أعرف شيئًا. عن نفسي، عن الناس... عن السبب الذي يجعلني أستيقظ كل صباح."
شدّت ذراعيها حول نفسها، كأن البرد بدأ يتسلل فجأة، رغم أن الجو لم يتغير.
– "ولهذا صرختِ؟"
قالها بنعومة، لا سخرية فيها.

هزّت رأسها، ببطء، ثم قالت، وكأنها لا تخاطبه وحده بل شيئاً أكبر بكثير:
– "لأني خفت... من الحقيقة عندما رأيتها حية "
أغمض عينيه للحظة، شعر بشيء ينقبض في صدره. لم يكن يعرفها حقًا... لكن في هذه اللحظة، أحس بشيء يتشابك بينهما هش، صادق، وصعب التسمية.
قال، وهو يفتح عينيه ببطء:
– "لن أطلب منك أن تشرحي. فقط... ابقي. إن أردتِ."
لم تقل شيئًا. لكنها لم تقم أيضًا. وهذا، في تلك اللحظة، كان أكثر من كافٍ.مرّ الوقت ببطء، أو ربما بسرعة... لم يكونا متأكدين الضوء تبدّل. لم يعد ذهبيًا كما كان حين جلست قرب الماء، بل بدأ يميل إلى الرمادي الناعم، ذلك النوع من الضوء الذي يُخبرك بأن النهار ينسحب بهدوء. أما صوت الماء فظل ثابتًا، طفيفًا هي لم تقل شيئًا منذ آخر جملة، لكنه لم يشعر بالضيق.
كان الصمت بينهما قد تغيّر—لم يعد صمت غرباء، بل صمت من يفهم أن بعض الجروح لا تحتاج إلى شرح، بل إلى وجود هادئ.هو أيضًا لم يكن يعرف لماذا بقي. كان من المفترض أن يمشي، أن يواصل طريقه... لكنه جلس. ثم جلس أكثر. ثم، حينّ أدرك كم تأخر الوقت، تنفّس ببطء وقال:
– "الوقت تأخر."

نظرت إليه، كما لو كانت تدرك للمرة الأولى أن الشمس بدأت تختفي.
نهض واقفًا، نفض العشب عن بنطاله، ونظر نحو الطريق الذي سلكه سابقًا.
ثم، التفت إليها مجددًا، وقال بنبرة لا تخلو من شيء أقرب إلى الحذر:
– "هل... تعودين إلى الفندق؟ أومأت، ببطء.
أشار نحو الممر الضيق وسط الأشجار.
– "سأرافقك. لا يبدو الطريق آمناً بعد الغروب." نظرت اليه و قالت " هل انتهيت من العمل يمكنني العودة وحدي ان لم تفعل" لكنه لم يتحرك فورًا. أكمل، بنبرة أكثر هدوءًا:
– "أعمال الترميم توقفت اليوم." فعت حاجبيها بخفة، نظرتها تعكس اهتمامًا فوريًا.
– "خسرنا اثنين من العمال."
قالها بنبرة لا تحمل أثرًا للأسى. كأنها جملة عادية. تقرير واقع تغيّر تعبير وجهها، وتقدمت خطوة نحوه.
– "أنا آسفة لخسارتك" ثم أظافت"قرأت عنه، في الجريدة صباحًا لكنني لم يخطر ببالي أنهم سيوقفون العمل " ارتفع بصره إليها ببطء، لكن لم يقل شيئًا.
لحظة صمت. كان واضحًا أنه لم يتوقع أنها تعرف.
قالت، وكأنها تخشى أن يسيء فهمها:" العنوان كان واضحًا... في الصفحة الأولى."

ثم قال أخيرًا، بصوت خافت:
– "لم أكن أعرفهم على أي حال "ظل صامتًا.
ملامحه لم تكشف ما يفكر فيه. لكن صدره ارتفع بانضباط، وكأنه يتنفس ليكبت شيئًا ما.
ثم أظاف :" اذن قابلتي كنان من الأفظل أن تبقي بعيدة عنه يبدو شخصا غريب " لكنها قاطعته بحدة "أنت أيظا غريب" نظرت إليه، بعينين فيهما شيء من الارتباك واصل المشي، وهي لحقت به بصمت لم يتكلما طوال الطريق حين بدت ملامح الفندق من بين الأشجار، بأضوائه الخافتة ونوافذه التي ترتعش خلفها الظلال، تنفّس مورتيفاروس بصوت لا إرادي تقريبًا، وقال:
– "ها نحن."
توقفت أمامه، نظرت إليه وكأنها تتهيأ لتقول شيئًا... لكنها لم تفعل.
هو أيضاً لم يقل شيئًا. فقط التقت أعينهما لثانية أطول مما يجب، ثم أدار وجهه نحو الطريق الخلفي.
ودون وداع، أكمل سيره واختفى خلف الشجيرات.لكنها بقيت مكانها لحظة أخرى، تحدق في المسار الذي سلكه، قبل أن تستدير ببطء، وتتجه نحو الباب الخشبي للفندق.

، دخلت عذراء إلى المطعم بخطى مترددة، يلفها معطفها الفاتح كدرع خفيف لمكان كان يعجّ بالحياة، على عكس البارحة بل مزدحماً برجال يرتدون سترات العمل الثقيلة، وسيدات بوجوه متعبة تضحك رغم تعبها. الكراسي تتحرك بصرير خفيف، والملاعق تضرب الصحون بإيقاع رتيب كانت الروائح قوية، تفرض نفسها بثقة لا تعرف الخجل دجاج مشوي حتى الحواف المحترقة، وزّ مدهون بالزبدة، أعشاب ريفية خشنة، بصل مقلي... الطعام كان حاضراً كما لو أنه شخصية رئيسية في المشهد، ثقيلًا، زاحمًا، يصرّ على أن تشعر به عند الطاولة الخامسة، كانت فتاة شقراء في أوائل العشرينات تتحرك بخفة تمسك دفتر الطلبات وكأنها تحمل كل هذه الفوضى بين أصابعها. تبتسم، تضحك بتهذيب، تنحني، تكتب... تعيد المشهد مرة تلو الأخرى بجانب كل طاولة خلف نصف الباب المتأرجح للمطبخ، لمحت سيلا، صاحبة المكان، منشغلة بين الأواني واللهب. وجهها يختفي ويظهر، مثل فكرة ترفض أن تستقر تلمع عليه قطرات البخار كأنها لآلئ صغيرة من العناء الجميل وفجأة، دوى رنين هاتفها وسط الضجة نظرت إلى الشاشة، وتلبّدت ملامحها: إنه آدم... المحامي قرت بأصابع مترددة على زر الإغلاق، محاولة تجاهل رجفة خفيفة في صدرها. لكنها لم

تكد تضع الهاتف جانبًا حتى عاد للرنين بعناد. تنهدت، ثم، كمن يقطع خيطًا مؤلمًا، قامت بحظره من قائمة الاتصالات. لوهلة، شعرت أن الهواء حولها قد أصبح أثقل فجلست في ركن بعيد كانت تحتاج لرسالة واحدة فقط من والدتها كن لم تجد سوى سطر واحد، جاف، بسيط... بارد "اعتني بنفسك. كفى هروبًا يا عذراء، عليك التحدث مع آدم. حصلت بعض التطورات في القضية. حان الوقت أن تنضجي." أعادت قراءة الرسالة مرتين، ثم أغلقت الهاتف ببطء جلست إلى إحدى الطاولات في الزاوية، متوارية عن أعين الزبائن، بينما تدور حولها الحياة الصاخبة كأنها ليست منها كانت الوحدة جاثمة على صدرها، لا صخب فيها، بل فراغ قاتم كالماء الراكد، بلا حراك، بلا نهاية جلست وحدها عند الطاولة، ترتب أصابعها بعناية فوق المنديل القطني، كما لو كانت تحاول أن تثبت لنفسها أنها لا تزال حاضرة، أن لها وجودًا يمكن لمسه، وإن كان هشًا. في هذه اللحظة، التي بدا فيها الزمن متجمّدًا، قطعت الفتاة الشقراء سكونها. كانت تحمل دفتر الطلبات، وخصلاتها الذهبية تتمايل برقة وهي تقترب "مساء الخير، هل يمكنني أخذ طلبك؟كان صوتها رقيقًا، مؤدبًا رفعت عذراء عينيها ببطء، كأنها تعود من مكان بعيد. تأملتها لحظة، ثم قالت:

— "ما أنواع النبيذ التي تملكونها؟"
ترددت الفتاة لوهلة، ثم أجابت بنبرة خفيفة:
— "نملك فقط نبيذ الكمثرى... مُخمَّر محليًا. يُصنَع في الجهة الشرقية من القرية. طعمه مميز."
— "سيكون كافيًا،" همست عذراء. غابت النادلة، ثم عادت تحمل زجاجة من الزجاج المصقول، لونها كالعنبر الضبابي، وفي يدها الأخرى كأس زجاجي طويل الساق. كادت تسكب لها، لكن عذراء مدّت يدها، برفق غير قابل للجدال، وأخذت الزجاجة كلها.
— "لا داعي، سأتولى الأمر،" تراجعت الفتاة خطوة صغيرة، تفاجؤها خفيف كغمامة صيف، لكنها حافظت على مهنيتها وبدأت عذراء تشرب جرعة بعد أخرى، ببطء مريب في البداية، ثم بسرعة متزايدة كأنّها تحاول أن تغسل شيئًا ما في أعماقها، شيئًا لا يُزال بالصابون ولا بالدموع. ومع كل جرعة ، كان النبيذ يصبّ شيئًا من الحياة في وجنتيها، حتى تورّدتا بلونٍ لم يكن فيه أيّ خجل، بل دفء زائف سرعان ما امتزج بثقل سُكرها الصامت. ثم بدأت الذكرى تتسلل.
غرفة عمليات.
أضواء قاسية بيضاء.
امرأة شاحبة ممدّدة أمامها، بالكاد تنبض وكانت عذراء هناك بين يديها مشرط وفي أذنيها صوت خافت كانه آتٍ من بعيد يصرخ:

— "عذراء! المريضة تنزف بشدة!"
— "أسرعي... أبتها الطبيبة سنفقد الجنين... والأم!"
— "أغلقي الجرح!"
— "عذراء، بحق الجحيم! ماذا تفعلين؟!"
لكنها لم تستطع أن تتحرك.
يدها كانت ثقيلة... مخدّرة.
كأنها لم تعد تملك جسدها، كأن العالم صار خلف زجاج سميك، لا يطالها منه سوى الصدى شعرت به يُسحب من حولها، كأنها تطفو فوق كل شيء ولا تستطيع الإمساك بأي شيء.
لكنها لم تستفق... حتى صدر ذاك الصوت المريع صوت جهاز "رسم القلب" حين يستقيم الخط وتدوّي تلك النغمة المفجعة الطويلة.
الصوت الذي يعلن نهاية كل شيء.
وماتت المريضة.
في لحظة واحدة، صارت الذكرى أكثر وضوحًا من الواقع، حتى بدت الطاولة الخشبية أمامها جزءًا من حلم، بينما كانت الذكرى هي الحقيقة الوحيدة و ذلك الصوت حفر في ذاكرتها، كما تُحفَر الجنازات في الحجر. وها هي الآن، وحيدة، في مطعمٍ ريفي، تحاول أن تغسل ذلك الصوت بالنبيذ. لكن الذكرى كانت أوضح من أن تُغرق، وأقسى من أن تُنسى.
كانت دموعها تنزل بهدوء و مع انتهاء أخر قطرة من الزجاجة تركت وحيدة مع جثتان و قلب محطم

قطع الخيزران من القلب يترك الجرح أعمق

كان الليل ساكناً، ثقيلًا كخطيئة قديمة، يتدلّى فوق المكان كغيمة من العفن , كانت الزريبة القديمة تعجّ بالصمت، لكنّه لم يكن صمتًا مريحًا. بل كان صمتًا رطبًا، خانقًا، مثل ذلك الذي يسبق الزلازل أو الجنازات جدران خشبية متشققة، مرقّطة ببقع داكنة لا يمكن الجزم إن كانت طينًا أو دمًا جافًا، ورائحة لزجة كأنها مزيج من لحم محترق وشيء فاسد, في قلب هذا الجحيم وقف هو رجل طويل القامة، عريض المنكبين، يعلو جسده معطف جلدي أسود بدا في وهج القمر وكأنه تسرّب من كوابيس شخص ميت المعطف كان مبلّلًا، يقطر بدماء لم تكن طازجة تمامًا، ولا جافة تمامًا، بل في طورها المتعفن، كأنها تحنّطت على جلده دون أن تموت و الدم كان يغلفه كما يُغلف الطين تمثالًا مقدّسًا منسيًا في معبدٍ ذُبح فيه الكهنة منذ قرون الأرض من حوله كانت تغصّ بالجثث... مكوّمة، متفرقة، مقلوبة على وجوهها، على ظهورها، بعضها بعيون مفتوحة كأنها لم تستوعب أنها ماتت بعد وجوه زرقاء، أعين مفتوحة على صراخ لم يُسمع، و كأن الموت لم يكن رصاصة أو سكينًا، بل شيئًا أبطأ، أشد قسوة الجثث لم تكن "باردة" كما يقولون في القصص. بعضها كان لا يزال دافئًا، وبعضها الآخر... يتحرك قليلًا. تشنجات ما بعد الموت، هكذا يقول العلم. لكنه لم يكن مهتمًا بالعلم. جلده صار لزجًا، رائحته تختلط برائحة العرق والحديد والرماد. كان يشمها. لم يكرهها. العكس، تقريبًا أحبّها.

انت الريح تعصف ببطء، ترفع خصلات شعره الداكن الملتصق بدماء ليست له، تهدهدها كأصابع أمّ تنتحب على طفل لم يعد. عيناه كانتا جامدتين، سوداويتين فيهما خواء مرعب، تلمعان بشيء لم يكن طبيعيًا مثل الضوء الأخير الخارج من ثقب في سفينة تغرق كأن داخله لا يسكنه روح بل فجوة. هو لم يتحرك. لم يتنفس. فقط وقف هناك , هو نفسه لم يعرف كم واحدًا قتل "عشرة؟ عشرون؟ ماذا بعد العشرين؟" تساءل بصوت منخفض، كأنّه يحاول إقناع نفسه أن الرقم مهم. لكنه لم يكن كذلك ثم، من بين صمت الليل وصرير الزريبة العتيقة، صدر منه صوت. لم يكن كلمة. لم يكن صرخة. كان... ضحكة خافتة. شيء بين الزفير وخرير الدم. ضحكة من فقد كل شيء، أو لم يكن يملك شيئًا منذ البداية.

شيء ما في هذا الرجل لم يكن بشريًا تمامًا ثم توقف، لأن شيئًا في الظلال تحرك خشخشة خفيفة، كأن أحدهم يجر قدمًا مشلولة فوق التبن. لم تكن الريح. الريح لا تتنفس. وهذا الشيء كان يتنفس... بصوت متقطع، رطب، أقرب إلى صوت شخص غريق يحاول أن يسحب هواءً من رئتين لا تعملان بعد الآن عينا الرجل ثبتتا على الظل، دون أن يرمش. لم يكن خائفًا خرج الشخص من العتمة بخطى بطيئة. لم يكن واضح الشكل، لكنه كان بشريًا بما يكفي لتبدو المفارقة مؤلمة. وجهه ممزق، كأن شيئًا ما حاول نزعه عن جمجمته ولم ينجح تمامًا.

إحدى عينيه كانت مفقودة، وفي الأخرى اشتعل وميضٌ أحمر خافت، كجمرة في نهاية سيجارة نُسيت تحت الرماد الرجل لم يتحرك أما الأخر اقترب أكثر، وتوقّف على بعد أمتار. رفع ذراعه المشوّهة وأشار نحوه... لا بتهديد، بل بشيء يشبه الرجاء. ثم نطق. صوته كان أشبه بورق يحترق:
"لماذا... لم تتركني... أموت؟"
لم يجب الرجل الضحكة التي صدرت عنه قبل قليل كانت قد تبخرت، وشيء أثقل كان يحلّ مكانها الآن ، اقترب خطوة "أنت وعدتني..." تمتم الغريب ، وبدأ صوته يرتفع، "أنت وعدتني... أن الأمر سينتهي بسرعة!" الرجل أخيرًا حرّك عنقه، وكأن عضلاته تصدأت من طول الجمود. نظر إلى الغريب بصمت طويل، ثم قال بصوت هادئ، غير إنساني تمامًا:
"الكذب... جزء من الصفقة." مد يده ببطء إلى داخل معطفه، وأخرج شيئًا لامعًا، معدنيًا، يلمع تحت القمر مثل ناب ذئب مسموم رفع القطعة المعدنية لم تكن سلاحًا ناريًا، بل شيئًا أقدم. شفرة قصيرة، سوداء، لا تعكس الضوء بل تبتلعه. خفيفة كأنها مصنوعة من عظم، لكنها كانت أثقل من أي ذنب الغريب حاول التراجع، لكن قدميه لم تطاوعاه. لحظة واحدة فقط... والشفرة غاصت في عنقه، بلا صوت، بلا مقاومة تُذكر. كما لو أنه كان ينتظرها. عينيه اتسعتا، ثم انطفأت الجمرة الأخيرة فيهما

الجسد تهاوى على الأرض ككيس جلدٍ فارغ، وتلاشى ببطء، ليس كاحتراق بل كمحوٍ دقيق... كما لو أن المكان نفسه يرفض الاحتفاظ بأثره. الرجل نظر إلى حيث سقط الغريب، ثم إلى الشفرة، ثم أعادها إلى داخل معطفه، بحركة باردة كمن يعيد قلمًا إلى جيب قميصه.الريح اشتدت، تحمل معها رائحة الموت والدخان والرماد ومن بعيد...أصوات صفارات الشرطة خافتة أولًا، ثم أعلى، فأعلى أدار رأسه نحو الباب الخلفي للزريبة. كان مفتوحًا، يتمايل على مفصلاته الصدئة. من هناك، خلف الحقول المظلمة، يبدأ الطريق نحو الغابة لم يركض. فقط مشى. كأنه يملك الزمن كله، وكأن أحدًا لن يمنعه من الرحيل بعد دقائق، اقتحمت ثلاث سيارات شرطة المكان. الأنوار الحمراء والزرقاء مزقت ظلمة الحقول. رجال ببدلات واقية، بعضهم يحمل مصابيح، والبعض الآخر أسلحة جاهزة اقتحموا المكان بحذر، لكن الرائحة وحدها كانت كفيلة بأن تنذرهم "يا إلهي..." تمتم أحدهم وهو يدخل الزريبة "ما الذي حدث هنا بحق الجحيم؟" اقترب أحد الضباط من زاوية مظلمة، ثم نادى:

"سيدي... تعال لترى هذا." عند مدخل الباب الخلفي، كان هناك أثر واحد فقط: بصمة قدم غارقة في الدم، تتجه نحو الخارج... ثم تختفي في الحقل. وقف الضابط الأعلى عند العتبة، حدّق في الأفق الرمادي، في الأشجار البعيدة التي تتمايل كأنها تتهامس.

"من كان هنا، لم ينتهِ بعد..." قالها بصوت خافت، كأنه يخاطب نفسه "يجب علينا امساكه لقد تمادى الأمر كثيرا ان لم نحتويه ليكن الله في عوننا"
كان مركز الشرطة يعجّ بالفوضى لكنها لم تكن فوضى همجية... بل من النوع المنظّم، الأوراق تطير على المكاتب، الآلات الكاتبة تُضرب بإيقاع متوتر، والأصوات تتقاطع: بلاغات، تقارير، شكاوى، وأسئلة لا يجيب عنها أحد. الشرطي المناوب ينظر في ساعته أكثر مما ينظر في عيني المشتبهين، ورائحة القهوة الباردة تمتزج بدخان السجائر، في عمق المبنى، خلف ممر طويل مضاء بأضواء فلورية باردة، كانت غرفة الاجتماعات غرفة مستطيلة، جدرانها رمادية، تحمل رائحة قديمة من القهوة البائتة والتبغ المنسي. في نهاية الغرفة، كان هناك لوح فلين كبير، عُلّقت عليه العشرات من الصور: ضحايا، أماكن جرائم، قصاصات صحف، خرائط ممزقة، وملاحظات مكتوبة بخطٍ سريع، بعضها دُوِّن بالحبر الأحمر. مركز الجدار تسيطر عليه صورة واحدة: وجه الرجل صاحب المعطف الجلدي، غير واضح الملامح، لكن عينيه الرماديتين قاتمتان كالحُفر تتقاطع الخيوط الحمراء بين خمس نقاط دائرية على الخريطة: بيدرا سومبرا , أغوا نيغرا , سانتا روزيتا , ريفيرغراس و لا إسترلا ديل سور و كل بلدةٍ منها... مسرحٌ لمجزرة لا تفسير لها ضحايا بلا رابط مشترك، بلا نمط واضح، بلا خيط منطقي

كان يقف أمام الجدار رجل طويل، عريض الكتفين في أوائل الأربعين من عمره بشرته برونزية تميل إلى النحاس توحي بأصوله البولينيزيّة من جزر هاواي شعره الأسود مموّج وجهه مستطيل، وجبينه واسع، وعيناه سوداوان كأحجار اللافا وأنفه مستقيم كحدّ سيف. بدا عليه ثقل التجربة، وهدوء شخص اعتاد أن يرى الجحيم ولا يرتجف. اسمه كان فجر رئيس المركز، من نسل رجال هاواي الأصليين. وفي لحظات الصمت، كان يمكن للمرء أن يصدّق أنه ابن المحيط ذاته الباب انفتح بلطف فجأة
دخلت سارة أولًا، بخطى حذرة لكنها ثابتة كانت سمراء البشرة بلون القهوة الداكنة في أواخر العشرينات، شعرها أحمر بلون غروبٍ متوهج، مربوط للخلف بإهمال عيناها كبيرتان، سوداوان، كغياهب لا يكشفها ضوء فيهما مزيج من الذكاء والغضب الدائم. ترتدي سترة جلدية فوق قميص أزرق باهت، وعلى خصرها مسدس صغير، راءها، دخل حسام شاب في منتصف العشرينات، طويل القامة، وجهه... كالرخام النائم في معابد أثينا القديمة جبينٌ عريض ينحدر إلى حاجبين متقاربين، ثم أنف مستقيم كحدّ رمحٍ هيليني، وفمٌ رفيع ، أما عيناه خضراء ساخرتان كضبابٍ شتويّ فوق بحر إيجه، لا توحيان بشيء ظاهر شَعرُه، الغجريّ غير مكترث بنظامٍ أو ترتيب،

رفع فجر عينيه عن الجدار، التفت إليهما دون أن يبتسم و قال :" تأخرتما" التقتت سارة اليه واضعة ملفا على الطاولة أخذته من التشريح :" كنا في المشرحة نفس النمط القديم معضم الجثث تحمل جرحا رئيسيا يبدأ أسفل الذقن مباشرة، عند مستوى الحنجرة، ويمتد بزاوية شبه عمودية نحو الأسفل حتى القص، مرورًا بالقصبة الهوائية طول الجرح يقارب 18 إلى 20 سنتيمترًا، ويصل في أعمق نقطة منه إلى التجويف الصدري. " ثم قاطعها حسام و هو يجذب كرسييا خشبييا و يجلس فوقه مقاطعا ساقية:" الجرح نظيف الحواف، غير متعرج، مما يشير إلى استخدام أداة حادة جدًا، غالبًا شفرة طويلة أو مشرط معدّل. لا توجد كسور في عظم القص، ولكن تم قطع الجلد والأنسجة العضلية والوعائية على امتداد مقدمة العنق والصدر العلوي" ثم جذب الملف من فوق الطاولة و تناول منه بضع صور و نشرها بترتيب وواصل التحدث :" لاحظنا وجود تمزق كامل في الحنجرة والقصبة الهوائية، مع شق في الجزء العلوي من القص، دون تهشم عظمي، ما يعزز فرضية أن القوة كانت موجهة بدقة وسرعة " اقتربت سارة من الصور تشير للجثث قائلة:" كمية الدم المفقودة هائلة، وقد وُجد تجمع دموي كثيف تحت الجثث، مما يدل على أن عملية النحر حدثت بينما كان القلب لا يزال ينبض، أي أن الوفاة لم تكن فورية تمامًا، بل استغرقت عدة ثوانٍ إلى دقيقة

رفع حسام رأسه و استوى بجلسته يدعم رأسه المائل بيد بينما الأخرى يمررها بين خصلات شعره و أردف :" لا توجد طعنات إضافية أو آثار دفاع واضحة، سوى خدوش سطحية على الساعد الأيسر، أو الأيمن من كل الجثث قد تشير إلى محاولة صدّ أو دفع المعتدي، لكنها ليست عميقة. هذا يشير إلى عنصر المفاجأة أو سيطرة كاملة من القاتل أثناء التنفيذ بينما تشير وضعية الجسد، واتجاه الجرح، وزاويته، إلى أن الفاعل كان مواجهًا للضحية عند تنفيذ النحر، وربما أمسك بالضحية من الخلف أو باليد اليسرى بينما قام بالقطع باليمنى من اليسار إلى اليمين" ظلّ فجر صامتًا لوهلة، ينقل نظره بين الصور المفروشة على الطاولة، ثم قال دون أن يرفع صوته:" "ثلاث و عشرون جثة. كلها بنفس النمط. نفس التكنيك. نفس الهدوء بعد التنفيذ. من يقتل بهذا الشكل... لا يرتكب جريمة، بل يبدو كأنه يُمارس طقسًا." اظافت سارة مطوية الذراعين، عيناها معلّقتان في الصور:"طقس... أم تدريب؟ الأمر يبدو أقرب إلى تنفيذ بدم بارد. لو كانت طقوسًا، لكان هناك شيء إضافي... علامات، رموز، استعراض. هذا... هذا نظيف أكثر مما يجب." قال حسام و هو يُميل رأسه محدّقا في صورة لجرح في عظمة القص:" "أوافق سارة. الدقة تدل على احتراف. ليس هاويًا مهووسًا، بل شخصٌ يعرف الجسد البشري كما نعرف نحن الشارع المؤدي للمنزل. طبيب؟ جزار؟ أو عسكري؟

فجر تنهد ببطء، كأنه يزن كل كلمة وواصل:"أو شخص تدرب على ذلك .....رجل عصابة أو على علاقة بأحد العصابات"سارة التفتت نحوه: "أنت تفكر في شيء. قله" رفع فجر رأسه نحوهم و قال :" البلدات بيدرا سومبرا , أغوا نيغرا , سانتا روزيتا , ريفيرغراس و لا إسترلا ديل سور خمس مجازر في خمس مناطق لا يجمع بينها طريقٌ مباشر، ولا يوجد قاسم مشترك بين الضحايا، لا الخلفية الاجتماعية، لا العرق، لا الديانة، ولا حتى التوقيت. الشيء الوحيد المتشابه... هو الطريقة." عدل حسام وضعيته و أجاب بتنهيدة ثقيلة:"وكأن شخصًا ما... يطارد أهدافًا لا نراها، ويترك وراءه أدلة تفوق استيعابنا." تقدمت سارة نحو الجدار، تشير إلى صورة مظللة لرجل بمعطف و قالت "إلا شخصًا واحدًا. الرجل صاحب المعطف. لقد ظهر في اثنتين من الجرائم على الأقل صورته كاميرات مراقبة، شهود عيان، وصفوه بشكل متكرر" عندها كمن ومض اليقين في داخله انتبه فجر للصورة يتمعنها و قاطعهم فجأة و قال بصوت هادئ لكنه محمّل بثقل ما سيقوله:" "ربما... علينا أن نعيد النظر في مَن نبحث عنه." اقتربت منه، سارة حاجباها مقطّبان :" ماذا تقصد" يواصل فجر النظر إلى الجدار، حيث صورة باهتة لرجل طويل القامة يعبر حقلاً مظلمًا:"أظن أننا نعرفه. أو على الأقل، واجهنا من يشبهه من قبل"رفع حسام حاجباه في استفسار : "من؟"

نطق فجر اسمه ببطء : "اسمه... مورتيفاروس مكسيكي. دخل السجن قبل سبع سنوات لطعنه زعيم عصابة مخدرات مكسيكية. أربع عشرة طعنة. كلها مركّزة في الجزء العلوي من الجذع... معظمها في المنطقة الصدرية والعنقية." أخرجت سارة دفترها الصغير وفتحت صفحة سريعة :”"أربع عشرة طعنة... نفس عدد الطعنات التي أصيب بها أحد الضحايا في مجزرة سانتا روزيتا نفس العمق، نفس الزاوية، نفس التوزيع تقريبًا." نظر حسام إلى الصور، صوته بطيء "لكن مورتيفاروس مسجون. أليس كذلك؟" نظر إليه فجر بعينين هادئتين:"كان. حتى شهرين مضوا. أُفرج عنه ضمن العفو الجنائي الجماعي الذي أصدرته الحكومة. أُطلق سراحه... بلا أي متابعة." تكلمت سارة بصوت متهدّج قليلًا:” "ولم يُدرج اسمه في قوائم العفو العام؟" فأجابها فجر :” "تغيّر اسمه ثلاث مرات في السجن. استخدم أوراقًا مزوّرة في البداية، وبعدها حصل على هوية جديدة بموجب تسوية قضائية غامضة. اسمه في وثائق الإفراج لا علاقة له بما نعرفه... إلا في التفاصيل الجسدية." يواصل حسام تقطّيب حاجبيه، ينظر نحو صورة رجل المعطف ;”"نفس الطول... نفس البنية الجسدية ... ونفس المعطف الجلدي الأسود الطويل” تدير سارة الصورة قليلًا، تفحص الظل، ثم تهمس;” لكن مادافعه لا أستطيع أن أجد سببا للأمر “ ثم أظاف حسام;” "هل نملك ما يكفي لطلب أمر توقيف؟"

ينظر فجر لى الملف، ثم يقول دون أن يرفع عينيه :"
"ليس بعد. ما نملكه... هو خيط رفيع. لكنه الوحيد
الذي لدينا "تشدّ سارة سترتها " "إذن نبدأ بالخيط.
ونرى إلى أين يقودنا يجب أن نجده أولا أليس كذالك"
جلس فجر على حافة الطاولة، وفتح شاشة حاسوب
محمول أمامه سارة وقفت خلفه، بينما تمضغ سؤالًا
لم تنطق به.حسام انحنى بجانب الخريطة المعلقة،
يقلب صور الضحايا واحدة تلو الأخرى قال فجر دون أن
يرفع عينيه:" "نبدأ من آخر عنوان معروف له... قبل
دخوله السجن. كانت غرفة صغيرة مستأجرة باسمه
الأصلي، في حي قديم يُدعى سانتو أليغري، جنوب
البلدة." قالت سارة "أليس ذلك الحي ذاته الذي
احترق فيه مأوى اللاجئين اللذى كان يديره أحد
القساوسة قبل ثلاث سنوات؟"أُجاب فجر و هو ينقر
على المفاتيح: "نعم... وكان هو أحد الناجين." تدخل
حسام من الزاوية، ناظرًا إلى الخريطة:"وهل تتذكران؟
أحد الأطفال الذين نجوا من الحريق، قال إنه رأى رجلاً
يفتح الباب الخلفي ويغادر مع قس قبل أن يبدأ
الحريق بثلاث دقائق فقط." قاطعته سارة:
"لم يؤخذ بكلام الطفل وقتها، لأنّه تحت الصدمة."
نظر فجر إليهما و رد :"أعتقد أن الوقت قد حان لنأخذ
كل الأقوال... حتى الهمس منها... على محمل الجد."
كانت الأرض مبللة بمطر خفيف، الحي مزيجٌ من الأبنية
المتداعية والروائح المشتبكة للطين و النفايات الاثنان
سارة و حسام يسيران ببطء، أعينهم تمشط كل
نافذة، كل ظلّ.

توقفت سارة أمام متجر خردوات مغلق "قالت السجلات إن السيدة مارثا، مالكة العقار، لا تزال تعيش هنا." ينقر حسام على الباب الخشبي المتآكل:" "فلنرَ إن كانت تملك ذاكرة أفضل من سجل الحكومة." قلبت سارة عينيها و همست" :غبي" الباب يُفتح ببطء، وتظهر سيدة سبعينية، شاحبة الوجه، ترتدي معطفًا رماديًا كبيرًا و بصوت مشوش تكلمت:" من تكنون " فرد حسام " الشرطة" رافعا شارته أمامها ثم واصل الحديث" "نود فقط بعض الأسئلة عن نزيل سابق... اسمه مورتيفاروس." لم تتكلم. بل شحب وجهها أكثر و ازدادت غرابة أما عينيها تقلصتا في حيرة و همست:" "عاد قبل أسبوعين دفع الإيجار ثم اختفى" تحدثت سارة باضطراب:""اختفى؟ إلى أين؟ فأجابت مارثا:
"لا أعلم... لكنني وجدت شيئًا في غرفته عندما كانت حفيدتي تساعدني في تنظيف الغرفة."تناولت ورقة مطوية من داخل جيبها، ناولتها لسارة ففتحتها كانت خريطة صغيرة، يدوية، وعليها علامات حمراء.
تتطلع إليها حسام : ""هذا... مخطط تنقل." ثم أشار إلى نقطة محاطة بدائرة كتب بها "الظليل"
"ومحطته التالية... بلدة الظليل " تطوي سارة الورقة، و تنظر إليه:"إن كنا نريد أن نسبقه، فالوقت بدأ ينفد." تنحنح حسام و هما يودعاني مارثا و يبتعدان بسخرية :" مكان مثالي لظلٍّ قديم يعود ليكمل عمله" ثم ضحك و هو يدير مقود السيارة :

"إذا كان ينتظرنا هناك... فأتمنى أنه لم يُجدّد شفرته" ببينما تجاهلته سارة و هي ترسل عبر هاتفها رسالة بالمستدجات التي حدثت الى فجر و هي تقول:" فقد توقف عن الثرثرة و قد" .
لمجثد